



مكتبة المتحف المصري

مكتبة المتحف المصري

ساق الكحل



المكتبة المصرية
للكتاب

سارق الكحل

لوحة الغلاف

اسم العمل الفني : حاملة المصباح التقنية : زيت على سيلوتكس
مقاس العمل : ١٠٠ x ٨٠ سم رقم السجل : ٥٢٤٥

تحية حلیم (١٩١٩)

إحدى رواد الحركة التعبيرية الحديثه فى الفن منذ النصف الثانى من الخمسينات ، واحتلت فى الستينات مكانا مرموقاً حين أوت جل اهتمامها للتأكيد على عناصر الرسم التى تبلور الروح الشائعة فى أبجديات الشخصية المصرية.

وقد منحتها رحلاتها فى الجنوب ، وفى الواحات ، وفى الريف المصرى الكثير من المفردات التى اشتغلت بها . لقد كان اللون البنى المعتم ، والمحروق ، وتهشيرات السطح ، والخريشات المتعمدة ، وموضوعات النيل ، والقوارب ، والأنتظار مع لمبة الجاز ، سببا فى إصباغ لوحاتها بذلك الطابع الشجى ، العذب ، الحزين ، الذى طالما طبع المصريين فى ملاحظهم الشعبية .

قطاع الفنون التشكيلية

سارق الكحل

يحيى حقي



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠ مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

سارق الكحا

يحيى حقي

الغلاف

الإشراف الفني:

الفنان : محمود الهندي

المشرف العام :

د . سمير سرحان

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة، تلك الصيحة التي أطلقها المواطن المصري النبيلة «سوزان مبارك» في مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذي فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذي كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفي مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافي الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التي أصدرت في سنواتها الست السابقة «١٧٠٠» عنواناً في حوالى «٣٠٠» مليون نسخة لاقت نجاحاً وإقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى «٣٠٠» ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع واسمها» الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. هدير هجران

كان

(١)

أحسست فى غموض وأنا خارج من البيت كأننى وضعت نفسى فى حقيبة قفلتها وتركتها به ، ليس العرى لاصقا بجسدى بل بروحى ، ماضقت بحياتى (هكذا كان يبدو لى) ولا مضيت هائما على وجهى بارادتى ، بل بالعكس ، لم يكن خروجى عن ملل ولا بغير مقاومة منى ، مقاومة مبعثها شىء من برودة سرت فى كيانى ونحن فى عز الصيف ، ماهى ؟ لاشك أنها برودة الخوف . هل يمكن أن يحتل الخوف قلوبنا على غير وعى منا ؟ دائما وجدتنى فجأة مسوقا الى أن أبدأ مبارزة شد الحبل على اسم ، مجرد اسم لم أكن رأيت صاحبه من قبل ، لا أعرف سحته أو وزنه وطوله وعرضه ، ولكنى قرأت عنه فى الصحف منذ عدة أسابيع ، فى لحظة كان القدر اختارها لى عن عمد ، ليتنى ماقرأت هذه الأسطر المكتوبة بالبهنط الدقيق فى نهاية عمود بالصحيفة السابقة

من الجريدة • لماذا اصطادت عيني كما يصطاد الثعبان
عصفورا من على الشجرة بسحر نظرتة المغناطيسية
المجاذبة ، المتلقفة ؟ لعل يدي أحست فى تلك اللحظة
بطرف الحبل الذى مد لها ، ستأتى مبارزة الشد فيما بعد ،
علمت من هذه الأسطر القليلة خبره وماهى تهمة وأين
سجنه ومتى ستعقد محاكمته ، وتفاصيل أخرى ضئيلة
عن حياته لاتكفينى لأن أراه بمخيلتى ، لاترسم بها الا
صورة مهزوزة له ، عمره بالتقريب ، نوع ملابسه
بالحدس ، أما نظرتة اذا وقعت على نظرتى ، ويده اذا
لمست يدي ، وجرس صوته اذا سمعته أذنى فهيئات لى
أن أعرف كيف هى ، وكل كيف محتمل وغير محتمل
معا . ولا دهشة عند تكذيب اليقين للظن • ولمعة النظرة ،
ولمسة اليد ، وجرس الصوت • • هى أولى وسائلى
وأصدقها لمعرفة إنسان • ونسيت كل شئ عنه ، لا علاقة
لى به ، ولما أسفر يوم المحاكمة عن وجهه بعد اندثار فى
زحمة الأيام استيقظ من نومه العميق فى باطن
ذاكرتى ، ونبهنى الى الموعد مع أنى لم أقرأ الصحف فى
ذلك الصباح فأعلم أن اليوم هو يوم المحاكمة •
أحسست فى غموض كأن مبارزة شد الحبل قد بدأت •
إنسان مجهول عندي يجذبني اليه شيئا فشيئا حتى اذا

التصق جسدى بجسده شفتنى داخله ، أصبحت أنا هو ،
ماضيه ماضى ، وبقية عمره ستكون بقية عمرى ،
واختلط الاحساس بالبرودة - لاشك أنها برودة الخوف -
شعور بلذة غريبة هى انتصار نزعة قديمة لا أدرى متى
بدأت ، أن أنخلع عن نفسى ، أن أضعها فى حقيبة
أقفلها وأتركها فى البيت ، أن أذوب فى شخص حى
آخر ، ليس شرطاً ان يكون التقمص بعد الموت ، جائز
جداً أن يتم أثناء الحياة ، هى لذة السفر الى بلاد مجهولة ،
الى آفاق مسحورة ، الى عالم جديد ، لذة مضاعفة الحياة
مثلين ، بلا انقطاع بينهما ، فلن أكف فى حياتى
الجديدة عن القاء نظرة من بعيد الى نفسى التى تركتها
ورائى داخل حقيبة قفلتها عليها ومضيت ، يقال ان
الروح أيضاً تظل أياماً تنظر من عالمها العلوى الى الجسد
الذى فارقته ، مطروحا على الارض ، انتظر ، لازل
هناك تحليل آخر لتلك اللذة ، فأنا موعود بأن أتقمص
انسانا كبقية الناس ، له ماض فذ ، لم تجن الغرائز
المكتومة على مسرحى كما جنت على مسرحه ، له روعة
انطلاق حمم البركان الثائر وألسنة لهيبه ، لم يكشف
الشر الدفين عن وجهه فى سجلى كما كشفه فى سجله .
شر مهول ، له سحر العبقرية ، ونداءات من ماضى

الخليقة ، جلجلة الرعد صراخها ، وجنسون الفرائز
وعبقرية الشر لها أيضا جمالها . لعين وفاتن معا ، هذا
هو ماضيه الذى سيكون ماضى أنا أيضا ، أما مستقبله
فمحفوف بالخطر ، قد يقوده الى حبل المشنقة ، كائن
شبعنا الى حد التخمّة من السلم والدعة فاشتقت الى
الخطر أعيد به صدق مذاقى لطعم الحياة . سأجرب
كيف أسمع . ياترى نطق القاضى بالحكم باعدامى ،
كيف أعيش بعده وحيدا داخل زنزانة ، أعد الثوانى ،
وبعد ذلك أكل وأشرب وأنام . كيف تشتغل أحشاء جسد
يرفرف عليه الموت الأكيد ، سأجرب هذا الصراع الم هول
بين الأمل فى الحياة ، لايتزحزح كالصخرة ، وبين دبيب
عزرائيل عن يقين خطوة خطوة نحوى ، سأجرب شعورى
بالفرح حين يفتح الباب فأرى أن فتحه لم يكن الا
لدفع صحن الى ، وشعور الرعب حين أرى أن انفتاحه
ذات مرة هى بداية السير الى حبل المشنقة ، سأجرب
كيف تنطلق من جوفى كله صرخة هى منذ الأزل عذاب
الانسانية . ولماذا لايعود الزمن الى الوراء ؟ لماذا ؟
لماذا ونحن نقدر أن نمده فنمضى به قدما الى أمام
لا نقدر أن نسحب ماضى منه ، ونكر معه الى الوراء ؟
لماذا كل ثانية ، كل نفس يتردد ، كل رعشة جفن ، هى

خبطة باثرة من بلطمة لاترحم ، لو هوت على جبل من
الجرانيت لشقته ؟ هل حياتنا اذن ما هي الا فتات اثر
فتات ؟ أرأيت اذن كم من تجربة فذة سأعدها ؟ وأين؟
فى حياتى الوادعة المسالمة تجد روى مثل هذه الذبذبات
الدسمة ، كأن فى قلوبنا جميعا استهواء نحو الحدود
القصى ، نحو حافة الخطر ، نحو قلقلة الحجر الصغير
تحت أقدامنا ، وهى تستند عليه ، ونحن نتسلق قمة
الجبل الشاهق ، ماأشهى طعم الموت ونحن فى حضن
الدفع أحياء ، ونظل بعد تذوقه أحياء .

أخذت أستسلم لشد الجبل بعد مقاومة أعلم أنها
مخادعة وفاشلة رغم زعمى لها الصديق والعزم . هذه
هى تبرئة التآلق لدمته أو حياء الأبي الجائع اذا دعاه
غريب حقير لطعام مبدول ، مقاومة مبعثها شيء من برودة
سرت فى كيانى ونحن فى عز الصيف . لاشك أنها
برودة الخوف ، فشتان بين نفخ البوق والتحام الجسد
بالجسد فى ميدان الوغى ، وكنت أستطيع أن أقاوم ،
وأن أشد الجبل نحوى فينفصل عن هذا الانسان الذى
يجذبنى ، وأنفصل أنا أيضا عنه . أن أخرج من بيتى
فاتجه يمينا الى مكتبى وأكون قد نسيت كل شيء ، وتكون
كل هذه الأحاسيس . مسبوقة بكلمة «كان» أوهاما

وهواجس ، أو أحلاما ذاب فيها كابوس ، تتبدد اذا قابلت الناس وانخرطت فى عملى . سويا مع اسوياء ، ولكنى وجدتنى وأنا أقاوم اتقاء للشر ، وأنحرف الى اليسار ، وأمشى نحو المحكمة ، وأدخل القاعة المزدحمة ، وأبحث حتى أجد مكانا بجوار القفص ، ثم أنظر اليه من فرجة القضبان فأراه لأول مرة .

(٢) اللقاء الأول فى المحكمة

فى اللحظة التى جلست فيها الى جانبه ، ورأيت من خلال القضبان لأول مرة نوع بريق نظراته . أحسست - ولاشك عندى أنه أحس مثلى - بأننا فى مستقبل الأيام - حين يتم اندماجى به - سنذكر هذه اللحظة . ونقول . ونحن نتعجب ، ان لقاءنا الأول - غريبا بغريب - كان كأنه لقاء مألوف متكرر بين أصدقاء قداماء ، ونردد الحديث الشريف عن الأرواح التى تتخالف ، وسنكون كاذبين على أنفسنا ونحن لاندري ، سيكون لا منشأ لهذا الاحساس الا أننا نسحب حاضرننا حينئذ على الماضى ، ونتصور. أن حالنا كان دائما هكذا ، فهل تذكرنا الثمرة ، ونحن نأكلها ، باليوم الذى كانت فيه نية ، نحسبها نبئت فى عز

نضوئها ، كأن فرحة الوصول الى التمام تلغى عن
الذاكرة ماسبقها من وعشاء التمهيد وعنائته . الناس
لا تنظر الى الماضى بعين الحاضر ، وهذا سر قولهم ان
التاريخ يعيد نفسه .

الحقيقة هى أن لقاءنا الأول كان كأنه فعلا بين
أصدقاء قديماء ، كأننا اقتطعنا من المستقبل الذى نراه
رأى العين اليوم الذى تم فيه اندماجى به ورددناه الى
الوراء فولد لقاءنا فى مهده . ومع ذلك كانت ولادة
هذا اللقاء الاول - ككل ولادة - مصحوبة بجهد شاق ،
كان لابد لنا نحن الاثنين من اجتيازه قبل أن نصل
للمراحة ، من ناحية الجالس فى القفص توتر شديد بين ،
ومن ناحيتى أنا تحفر متأجج مستور .

أما هو فقد كانت له فى قبضة الوحدة المرهقة فى
السجن ، وشبح المشنقة يتأرجح أمامه ، أحلام مزمنة
وسط خيالات أخرى معقدة بأن القدر سيرسل له حتما
- ومن حيث لا يحتسب أو يتوقع - شخصا مجهولا لديه ،
يكون لقاءه به بمثابة الفرجة فى الظلام ، قد لا ينقذه ،
ولماذا ينقذه ، المهم أن هذا القادم سيرد اليه صوابه ،
سيكون هذا الشخص المجهول بمقام الوعد الذى يربط
به حبال خيمته التى تهدها العواصف الهوج كلما نصبها ،

ينفتح بطنها ولكنها تجهض كل مرة . ستبدو له بفضلها حقيقة الأشياء وسط الضباب الكثيف مخيفة ولكنها على الأقل وليدة العقل لا الهذيان ، فقد اختلطت في ذهنه الأيام والأحداث والذكريات لا يدري كيف ومتى وأين حدث الذى حدث ، انه فى أشد الحيرة - الحيرة هى التى تجعل الطبق يسقط من يده ، ويخلع بنطلونه وهو يريد أن يلبس بعده قميصه ، ويظل يمضغ على الفاضى ، بعد أن يزدرد لقمته ، مسحورا بمراقبة حركة فكه الأسفل وصوت خبط أسنانه على أسنان فكه الأعلى ، ولماذا يداوم الأكل ، يستطيع الوقت أن ينتظر ، لأن وقته فى السجن مرتخ أشد الارتخاء ، كأن حباله منسوجة من رمال الجيزة التى تجعله يسأل نفسه وهو يمد قدمه : هل هى خارج باب الزنزانة أم خارج باب السجن ؟ لم لاتكون هذه تلك ؟ لم لا ؟ كل المسجونين الخائفين من الحكم عليهم بالاعدام يعيشون وهم واثقون بأن معجزة ستحدث ، سينشب حريق يلتهم ملف القضية ، ستقوم ثورة فى البلد ، سيعثرون على خاتم الملك أو طاقيّة الاخفاء ، بل يرضون أن تكون المعجزة هى مجيء يوم القيامة ، يبعثر القبور ويهدم الدنيا كلها .

وما رآنى أجلس بجانبه كأننى أشب على سطح

الموج الذى يلفه ، وكأنه عارف بمكانى من قبل ، عارف
بلىقائى به ، وكأننى على موعد معه ومع مكانى ، حتى
تملكه توقر شديد • هل هذا هو الشخص الذى همست
به أحلامى ؟ هل القدر يصدق أم يعيث بى ؟

وفى لحظة خاطفة ، كأنها ومضة البرق ، ارتفع
الأملى الى ذروته ثم هوى الى حضيض من الريبة
المفترسة •

من هذا الشخص الذى يقحم نفسه على دنيا ، دنياى
أنا وحدى ؟ هل هو دسيسة ؟ هل يريد أن يحذرنى
بمعسول كلامه لينتزع منى اعترافى بجرائمى ؟ هل
أرسله واحد من أقارب الضحايا أو لعله واحد منهم ؟
هل سيحاول قتلى انتقاما منى ، يطمعنى فجأة بخنجر أو
يطلق مسدسه فى صدرى ؟ هل هو حامل لسهم خفى
يصيبنى به زفيره ؟ هل هو مجنون هارب من مستشفى
المجاذيب ؟ هل هو عزرائيل يتخفى فى شكل انسان ؟
أم تراه هو روح والدى تقمص فى جسد انسان خير ،
أبى ، يريد أن يخرج من قبره يزورنى ؟ هل البسمة
تصدده أم تستأمنه ؟

كنت أصوب اليه — مع الابتسام — نظرة شاحصة

متصلة فتتهرب عيناه منها ، ويشيح بوجهه عني ، كأنه
منصرف عني بمراقبة شيء عن يمينه أو عن يساره ، ثم
فجأة يغافلني ويدير وجهه نحوي . لحظة خاطفة ليمود
فيلويه عني ، رأسه رأس طائر مفرع ، على شجرة ، ينظر
الى الخطر ، يتوجس مرة من جنب ومرة من جنب . كأن
ارتداده منى يكاد يكون مرأى العين ، كان يجرى الى
الوراء وهو جالس ، وكان القفص الضيق أصبح ساحة
قسيمة للريح ، أدركت ، أنا الذى أكاد التصق به ،
أنه كأنما يرانى من منظار معظم مقلوب ، أى من بعيد
بعيد ، كأنى فى آخر الدنيا ، وأنا ضئيل ضئيل ، كأننى
سخطت وأصبحت عقلة الاصبح بطل الحوادث .

وكنت أعلم أن ريبته ستزول ، ولم يكن تحفزى الا
لبذل جهد روحى شديد من أجل ترويض هذه الريبة
وازالته . لا بد أن أدعك صلابتها لتلين ، وأعالج
عقدتها لتنفك . بالصبر والأمانة والحيلة والرقى
والتعاويد ، فأخذت أملاً نظرتى بأشد ما أقوى عليه من
الود والحنان والتطمين . على أن أجعلها شاخصة متصلة
اليه بابتسامة أحيطه بها ، وأذرها عليه ، وأجلله بها
كما يفعل الصياد بشبكته ، وأن أقدم له من قلبى يدا
بيضاء وهمسا حفيا يقول له : لا تخف ، أنا الذى

ناديته ، لن أقدم — وان كان من حقى — على ممايتبتك
لأنك نزعتنى من سلام عيشى ورتابة مشاغلى ، وجررتنى
اليك لتلفنى أعاصيرك ، ويكون ماضيك ماضى ومستقبلك
مستقبلى . بالمشقة والجهد الذى عانت به روحى فى
الترويض والدعك والفك ، أحسست بارهاق ، وكنت
أهم بالقيام ، وأهرب ، موقظا نفسى من كابوس مخيف ،
منقذا لها من الأسباب نحو شطف بالوعة مآلها الى ظلمات
سحيقة لا نهاية لها . وتمتعت شفتاى فى نطق العامة
بكلمة «الهو» ، وكان للواو المشددة فى أذنى كأنه من
نفخ الجن ، ولكنى تماسكت ، أو قل خضعت لقوة أقوى
من قوتى .

وشيمًا فشيئًا تبدلت ريبته وكف عن الاشاحة
برأسه ، ومغافلتى بالقاء نظرة خاطفة ، ومنحنى وجهه ،
وان جعله مخيفا نحو صدره ، رأسه تعتمد على كفيه ،
وذراعا على ركبتيه فى جلسة استسلام وترقب مطمئن ، .
وان خيل لى أنه يشكو من صداغ ذهنه . حينئذ لحظت
ملامحه لأول مرة وعسرفت شكلا وبدأ بيننا الحديث
بصمت خافت ، كأنه هو الآخر نحسيس يد أعمى على
شئ مجهول .

(٣) الاندماج والكلام ترجمة

المهد الذى ولدت فيه حى زينهم - قال لى - وألفته
مطفولتى . انه هو الأصل فى العالم الذى خلقه الله ،
تقبلته كما هو بلا حجة أو تعليل ، منه أو منى ، كل
ماعداه شذوذ ، أو خلل ، أو لغز ، أو اهدار للمنطق ،
فكنت لأجد الأمن الا فيه ، فاذا تجاوزته أحسست بشيء
من الدهشة أو الخوف ، وعدت سريعاً كأننى أهرب الى
مرفأ من بحر متلاطم لا يحاط به ، تزغل شعشعة أضوائه
عينى ، وترج ضجته وهديره أعصابى .

فلو سألتنى : من هم الناس لقلت لك هم ناس حيناً ،
أما غيرهم فمخلوقات على سبيل التجربة لم تجد وضعها
الأخير بعد ، فهى تعبث بحياتها كما يعبث الطفل بالطين
الحام ، وهو يريد أن يشكل منه شيئاً لا يعرفه بعد ، فاذا
استقرت أدبعت ، ولا بد ، مثلنا ، وعاشت عيشتنا ،
وارتدت عن شئ الى هدى . وما هو سكن الانسان ؟ لقلت
لك انه فى لقلقة دروب ضيقة حتى تنتهى الى آخر بيت
فى حارة مسدودة ، مستنداً الى التسل ، فتجد على يمين
الباب مندرية أرضها تراب ، هى التى نشأت فيها منذ
مولدى الى أن خرجت منها الى السجن وأنا فتى يافع ،
وما النهار ؟ لقلت لك انه العتمة ، والذباب ، وأكوام

المقامة على الصفيين • وما الليل ؟ هو حبسة مع الظلام
والبعوض والبراغيث • وما النور ؟ هو لمبة صفيح
سهارى بلا زجاجة ، ذروة تشهق بذيل طويل من الدخان
المهيب ، وما الرائحة ؟ هي نفث فروة خروف ، أنفاس
صوفها الملبد من فوق ، وزخمة دباغة جلدها — من تحت
عمرها — هي ورائحتها — أطول من عمر أهلها ، لم يكن
لى فراش سواها • وما الأكل ؟ الفول المدمس والنابت
والطعمية والباذنجان المقلى وسلطة القوطة والبصل ومدد
من بلاص عسل أسود ، وما النعيم ؟ لقلت لك انه كوب
من الشبای الأسود والعين لاتزال مغمضة بعد النوم ، أو
قرش تعريفة يعطيه لى أبى بين الحين والحين • وكل شيء
عدا هذا كله من أناس ومسكن ، ومن نهار وليل ، من نور
ورائحة وطعام ونعيم حديث خرافة يأم عمرو •
لا سؤال لى : لم كان هذا هكذا ؟ ولم أسمع أحدا من
سكان زينهم يتلفظ به ، ولكن عبر احساس مبهم غامض
خيل الى أن هذا السؤال يخالطنا ، ويمشى بيننا مشية
التائه الدائع ، وان ظل مختفيا كالماء من تحت تبن ،
يكشف عن وجهه ، وينطق لا بكلامنا ، بل بكلام الوحش
المزمجر — فى لحظات عابرة يعود بعسدها زينهم الى
الهدوء والاستسلام • من أجل هذا الاستسلام نستحق

أن نوصف بالتخلف ، بالفباء ، بالجهل ، بالتواكل ،
طور الله في برسيمه ، واستخفنا — يالفرحتنا — أن
نكون من متاحف العاصمة التي ينصح أيضا للسائح
الغريب بزيارتها ضمن جولته ، وحبذا لو أخذ لنا صورة
فوتوغرافية ، الأصل في العالم الذي خلقه الله أصبح
في نظر المسوخ خارج نطاقه متعة تستحق الفرجة
كالأعاجيب ، كالمجل المولود بنخمس قوائم أو الرأس
المقطوعة التي تتكلم من فوق طبق ، لم يبق الا وضعنا
تحت مجهر *

هذه اللحظات العابرة التي أحس فيها بزمجرة هذا
السؤال (لم كان هذا هكذا) تأتي حين يسيل دم نافوخ
رجل فتحه رجل آخر يسبب تافه ، ينطق الوجهان حينئذ
بذروة القسوة والشر ، بصرخة السؤال المكتوم ، وحين
ينشب من أجل دلق كوز من الماء عسراك عنيف بين
جارتين فاذا بالصديقتين الحبيبتين منذ هنية من ألد
الأعداء ، لو طالت الواحدة لذبحت الأخرى بسكين مبتل
بهذا الماء من تحت التبن *

ما ألد وقع الفاظ النسياب الفاحش حينئذ على
أذنى ، كانت هي أول كتاب علمنى أسماء الأعضاء
التناسلية للذكر والأنثى ، بل مترادفاتهما ومواقعهما

البليغة ، وكذلك عملها ووظائفها وماهاتها - وهنا
ايضا مترادفات كثيرة لحركات الاصبع الوسطى والذراع
لها دور فى التصوير والشرح . وتحديد المقاييس هذا
رسم بياني لعمارة الجنس . ياخير أبيض ، اننى ايضا
سطر فى هذا الكتاب ، ولعلها حذفت من صفحتها
حواشى كثيرة ، ضنا بها أن يعلمها أولادها ، من أجل
هذا أنفت وكرهت يل قل خفت - رغم اعجابى بالرسم
البياني - أن أسكن العمارة ، وبدت لى أيامى القادمة
محفوفة بتجارت عصيبة أحسست أننى لم أستعد لها
ولا أدرى كيف يكون حالى معها ، انفرزت فى قلبى
بذرة الشك فى نفسى . لم أكن أعلم أنها ستورق هذه
الزهور التى يقطر منها الدم . ارتبط الجنس فى
وجدانى وذهنى بالقسوة والشر والعنف ، وأيضا
بمنظر المرأة وهى أقبح مثال للشراسة والفظاظة
ودمامة الذوق . الوجه مشوه من شدة تقلص ملامحه
على جنون . لغة العيون جاحظة من فرط التوتر ،
الأنياب بارزة كالحناجر . اللثة منكشفة كبطن دمل
مشقوقة مشنفرة . الصوت غجرى . الكلام يديء .
التفنن الداعى فى التقصع ، فى التلقيح ، واختيار
الموضع الذى يصيب فيه نخر الابرة مقتل الكرامة .

لا حد لقدرتها على الاعتداء ، على الغش ، على الالتهام .
أضافها خلقت لها لتنشيبها فى لحم جاء يلتبس منها
الرقعة والحنان ، حتى يدمى ، هى أخطبوط لم يبق من
خطاطيفه الألف الا أربعة ، هى ذراعاها ، وساقاها ،
وبدونته فهى أقوى منه على أسر الفريسة وهصرها
وامتصاصها بمد خنقها ، ارتباط الجنس فى ذهنى
ووجدانى بحركة الخنق بالضغط على العنق ، ما أشد
بجاعتها ، أى ظن لها بنفسها هذا الفاجرة الدعية
المتمافية ، وهى لاتستحمل ضربة من قبضة يدك
ماأحمق غفلتها . أليس لديها مرآة لترى صورتها :
ثدياها المتهدلتين من كثرة الرضاع ، وبطنها المرخى
كالقربة الفارغة من كثرة الحمل والولادة والاجهاض؟
ان جسدها مخلوق للنشوة ، أفلا تشم روائحها ، أفلا
تخجل من زيفها المتكرر ؟

وهمس صوت فى قلبى ، أتركها ، حد الله بينك
وبينها ، اذا اقتربت منك ابتعد ، رد السلام من بعيد
لبعيد ولا لزوم للكلام ، فاذا اقتنصتك فتخلص من
قبضتها كالقرموط الميت المزقلط . ادع العجز ،
وربما لن تكون فى حاجة الى الادعاء رغم كل حيلها .

فاذا رأيت اعجابها فى الرجل بخشونته فاصنع

نفسك أنت على الرقة والدمائة ، أو بقوته فاجعل
جسدك ليذا كالغصن الطرى • أو باستعلائه ، وثباته ،
فايد أنت للناس متواضعا مسارعا الى الكسوف
والخجل ، وحرر وجهك كالورد • واسمع لأن يصفك
الناس - وأولهم أمك - بأنك ولد كالبنات ، بأنك
بنوته ، لكى تخفى كراهيتك للمرأة •

أترك هذا الجنس الآخر ، والتمس صبية قرنام
جنسك ، أنت من الصبيان ستجد عندهم راحة قليلة ،
فبعض الجنس أولى ببعض •

لم أكن أعلم أننى ، دور صبية الحارة أنفرد بهذا
التخبط وحدى ، وأننى بدأت أنسج حبل المشنقة الذى
سيلف حول عنقى • لاشك أن طينتى كانت غير طينتهم •
ولكن ما السبب ؟ ان لم أكن أستحق منكم الرحمة
فأناشدكم على الأقل أن لاتقولوا بأن هذا السبب من
اكتسابى عن ارادتى ، من صنعى ، واتركوا لى وأنا
جالس فى عذاب هذا القفص ، أنتظر صدور الحكم
شيئا من الراحة ، لبعض من الأمل بأن يكون السبب
قد جاءنى بالوراثة ، أو راجعا الى خلل عضوى ولدت
به ، ولست مسئولا عنه ، فى احدى الفئد مثلا ،

سيزداد أمرى وضوحا حين تروى أنت عنى حكايتى مع
أبى وأخى الأكبر .

كانت نظرتى لاتزال مصوبة باتصال الى الفتى
الوديع الدمث الرقيق الجالس وراء القضبان . أطلقت
عليه الصحف لقب السفاح . كنت أترجم عنه فى سرى
كلامه الذى لم ينطق به ، لأننى كنت اندمجت به .
وعشت عمره كله خطوة خطوة ، حتى لأتوهم أن على
ظهري أنا أيضا آثار السياط التى انهالت على ظهره .
وهنا دق رئيس المحكمة بالقلم على منصته وقال : هات
الشاب الأول .

ودخل والد أول صبى مات مقتولا مخنوقا
مهتوكا .

(٤) المدخل الى اكتشاف التل

أعيش الآن حياته ، ماضيه ومقامه فى زنزانة
يسجن باب الخلق ، ومستقبلى تتابع صفحات بيض
أقحمت على أجندتى ، سقط منها طبع اسم اليوم
وتاريخه . ان أول صفحة مرقومة سأجدها ، ولم أعثر
عليها بعد ، رغم تقليبى لبقية الأجندة بلهفة وملل
معا ، هى صفحة اليوم الذى سأسمع فيه الحكم بالاعدام ،

انه الغيب ملقى فى ظلام قاع بحر عميق ، والسلسلة
تربط سفينتى غائصة مختفية توهمنى أن لا حد لطولها ،
فحياتى حرة طليقة الحركة كحياة بقية السفن التى تحرث
هذا البحر ، اذا أحسست بقلقلة قلت انها من عبث
الأمواج ، تتأرجح على يد ثابتة ، أرفض أن أدرك أنها
من فعل هذا الغيب الذى يترصدنى - دون أن أراه - من
بعيد لبعيد ، اذ هو الذى يشدنى اليه شيئاً فشيئاً ،
ساقترّب منه قليلاً قليلاً حتى يكون اللقاء ، حتى تتم
الصدفة .

وأصبحت أعانى من شيئين جديدين على حياتى .
استيقظ من نوم ينحط فوقى كالجبل ، يرهقنى وأنا
الذى طلبته فهو وسيلتى الوحيدة للهروب الى باطن
الأرض . أفتح عينى فأجدنى تحولت الى لوح من الثلج ،
روحي تحجرت من شدة البرد ، وجسدى ملفوف على
محور من الصقيع ، تخرج منه أسلاك جامدة هى عروقى
وشرايينى ، وأعصابى لهذا الصقيع هبوا كهبوا النار ،
فأنا أرتعش من البرد ومن الحمى معا ، حمى باردة أو
برد محموم ، اننى حينئذ التحف بأسفلت الزنزانة
التمس من لسعة برده بعض الدفء . ومن ندى أنفاسه
بعض الترطيب ، وأنا طول الوقت فى حضن ضجيج

لا أعرف اسمه . أياكون هو الخوف ؟ أياكون هو الموت ؟
كأن قمته هي التي أحالتني الى لوح من الثلج .

وثاني الشيين الجديدين على حياتي هي الأحلام ،
أكثرها لا أذكر منه شيئا اذا استيقظت لشدة هولها ،
لا لأنني أكون قد رأيت صورةا بشعة أو تعرضت لعذاب
شديد أو لرعب كابوس ، بل لأنها خارجة عن نطاق
العقل ، كأنما قام عفريت مجنون هائج بتأليفها ،
واخراجها ، وتمثيل أدوار جميع أشخاصها ، بل انه
يتشكل فيتخذ صورة الاكسسوار المتناثر على المسرح ،
حتى الستارة هي قطعة من جلده . ولغة هذا المجنون هي
الصمت ، وان كان محبا للثرثرة فهو يتكلم ولسانه
مشلول ، وينطبع كلامه على كياني كله ، لا على أذني
وحدها ، كأنى ورقة نشاف تمتص فتجمد عليها تخاريفه ،
وقد زادت شلفطة ، هنا احساس أنه استنبط أن جسدى
مبرقش بالبقع .

وأقل هذه الأحلام عفريت مجنون ، أيضا ، هو
الذى قام بتأليفها ، ولكنه مجنون هادىء له نزعة فنية ،
لذلك فاني أذكرها فى الصباح ، سأروى لك آخر مارأيت
من هذه الأحلام ، لأدرى أفى الليلة الماضية أم فى ليلة
سبقتها . وجدتني عاريا فى بحيرة أبصر ساحتها لوزية

الشكل ، لونها أدنى أطراف اللون الأزرق ، شفاف
كصفة السماء الصافية ، وماؤها غليظ ثقيل كالزئبق ،
فأنا غائص ولكنى لا أغرق ، وسطح الماء كأنه قشرة
سمكة رقيقة وذات قوام معا ، وكنت أحس طول الوقت
أن هذه البحيرة ماهى إلا عين مخلوق مارد هبط على
الأرض من عالم آخر ، لا أهداب لها ولا عين له سواها ،
ورغم مصارعتي لثقل الزئبق المطبق على ، أغطس وأقب
فلا أنا غارق ولا أنا ناج ، ولأننى كنت أشعر براحة
واطمئنان فقد خيل لى أن هذه العين تتحملنى برفق ،
تريد أن تقول لى كلمة حلوة ملؤها عطف وحنان ،
واستيقظت ، لا أحس بضيق ، بل بنشوة غريبة لما
رايت من جمال أو من أطراف • كان جسدى أزرق ،
وشفافىة ويريق سطح البحيرة ، كأنه هدسة
بللورية •

كل هذا وجسدى يأكل ويشرب ويتبرز ، يمرق
ويجف ، يتسخ وينظف تنمو أظافره وتقصف ، ويطول
شعره ويقصر ، كان لا علاقة بينى وبينه ، وكان لهذا
الانفصام التام بيننا دهشة وعذاب ووجل • فى بعض
الأحيان أجز على أسنانى لأهيد التعامى به ولو للحظة
خاطفة • وخيل الى أن جسدى أصبحت له ارادة مستقلة

عن ارادتي ، فيدي تصدر منها حركات ليست من
فعلي ، تمتد فجأة فتصدم كوب الماء البعيد عنها ،
وتقلبه ، وتدلقه على الطبق الذي أكل منه ، وقدمي
يلتوي ولا مطب تحته ، وجفتي تتكرر له نوبات
الانتفاض كأنه جرس يدق ، وحنجرتي تبيع بفتة
بلا عجلة ، وأظلم أيدل جهدي في تسليكه . وأتنحج
من أجل أن أملك صوتي فيلقظ أنفي النحنة رغما
منى ، ويتسلى بها زينا لا يبالي أن أصبح أخنف . كان
جسدي يعاني هو الآخر ما أعانيه أنا - بسبب الانفصال
الثام بيننا - من دهشة وعذاب ووجل ، كأنما حين
انفصلنا أخذ كل منا يرقب الآخر بعين الشر حتى
لتحسبه لا شغل له ولا مشغلة الا هذه المراقبة .

لا بد لي - لأجل أن اتنفس براحة ولو قليلا - أن
أهرب يفكرى من حاضِر الزنانة وهو أجسها ، ولو
مؤقتا ، لأعيش ماضى هذا القتي ، وقد شاء قدر خفى
أن أكون أنا هو ، وهانذا أغمض عيني لأستعيد حياتي
وأنا صبي وأعيشها يوما بيوم .

البداية خط باهت مستقيم - هانذا صبي يمر عند
الناس من أدق فرازة تحجز كل بضاعة بها أقل أو
أخفى مطب ، طبعا بمقاييس حي زينهم - فشقتي

لا تزيد ولا تنقص عن شقاوة بقية صبيان الحارة .
كلامنى وفهمى كلامهم وفهمهم ، وعند الذباب الساقط
على وجوهنا وعيوننا قابل للقسمة علينا بالتساوى ،
ليس فى خلقتى شذوذ بسيغ أن تلفظنى العين من وسطه .
أحب لعبة الضباط والحرامية ، وكنت دائما فى جانب
الحرامية ، لأعرف أننى اختارهم لأنهم الأذكى والأبرع
والأكثر ، بل لأنهم يكسحون فى طلب الرزق ، ويحتالون
عليه ، بخلاف الضباط لقمتهم سهلة . وكنت أريد أن
أثبت لنفسى أننى سأكون بفضل هذه الخبرة قادرا حين
أكبر على كسب العيش بشرف ورجولة ، وكنت أحب
لعبة الاستغماية - بفضلها عرفت التل الذى يمشى حى
زينهم فى حضنه وكان لى فيه يوم ليس كبقية الأيام ،
فأنا حين أنظر اليه من الزنزانة أدرك أنه لعب دورا
خطيرا وحاسما فى حياتى . كنت صعدت على التل وأنا
أجرى . وأقفز فوق الحفر وأتسرج مع التواءات
جوانبه ، حتى وجدت لى فجوة أشبه شئ بمفارة
فدخلتها ، واختبأت بها وأنا ساكن الحركة ، وإن بقيت
الهدوء ، هيهات أن يجدنى فيها الصبى المعصوب العينين
إذا نادى «خلاص» . فجاءه رده من بعيد «خلاص» .

كنت لا أزال أسمع وقع جرى الصبيان على التل ،

وتدحرج الأحجار من تحت أقدامهم ، ومكثت برهة
ووجهي يكسوه التهلل ولذة الترقب ، فإذا بوقع الأقدام
يتضاءل ، ثم يختفى ، ويشملني السكوت والصمت ،
ومر زمن طويل تأكدت بعده أن اللعبة قد انتهت ،
وأنهم نسوني ، فخرجت من المغارة ، والتقيت بالتل لأول
مرة وجها لوجه ، لا ثالث بيننا ، شعرت أولا بالخوف
بسبب وحدتي وانقطاعي ، ولكن الخوف زال حين بدأت
أنظر الى التل كأنني اكتشف شيئا جديدا ، فإذا به
يسحرنى بانعزاله وغموضه ، وقدرته على سترك ،
وتخبئتك عن أعين الناس - جيت أغلب جوانبه وكهوفه
وعرفت نوع طوبه وأحجاره ، وامتحننت أرضه ، فوجدتها
خليطا من تراب داكن زخم الرائحة ، وفتات طوب
ونباتات عفنة لعلها بقية من قمامة - العجيب أن أنفي
أحب هذه الرائحة ، وأحسست أن في بدني عرقا قد
نبض لها ، وأنه لن ينبض بعد ذلك الا بفضلها أيضا ،
هذه هي رائحة مخاض الأرض ، وهذه الأرض في هذا
التل رخوة تلين لك ، تستطيع بلا فأس أن تحفر بها
قبرا ، بأظفرك وحدها - ولم لا ؟ تحفر قبرا وتملاه
دون أن يحس بك أحد ، حتى لو انطلقت على حافته
صرخة فلن يسمعها أحد - أما المشرجة فهيات أن

تتجاوز أذنك • لم تعد الوحدة في التل تخيفنى ، بل وجدت فيها راحة ونعيما ، زادت قيمتها عندى حين غابت الشمس ، والتفت التل بظلال بدت لى رحيمة حائية ، علمت منذ ذلك الغروب أن هذا التل سيكون مملكتى ، ومحراب لذتى •

(5) آخر العنقود

كان صاحب العنب قد وجد فى قفصه عنقودا تهرأت حباته الا اثنتين ، واحدة فى رأسه ، وواحدة فى طرفه ، حين مرت به أمى تسأله نصيبها • لف العنقود فى مشيمة لئلا تراه ، وفتح بطنها ، ووضع القرطاس فيه ، وقال لها : هذه قسمتك ، لم أحرمك كما فعلت بكثيرات غيرك ، فأنت ولية مسكينة - لن تكونى صحراء جرداء ، بلا نبت أو ظل آلة معطلة بلا نتاج ، لن تصيبك لعنة الحقم وجنونه ، لن تموى سرا بالليل كالذئبة الجائعة ، لن تدورى بالنهار مخبولة على الأولياء كالشجاجة الدليلة ، ولكنه لم يقل لها : وستبكين عشرين مرة بعدد الحبات المعطوية •

نزلت الحبة الأولى وأمى فى سن الرابعة عشرة ، هذا هو بكرها ، أخى الأكبر ، ثم حملت بعده قل عشرين

مرة تجهض أو تسلم وليدها الى الغير وهو ما يزال في
اللفة . بكت على كل ولد كأنها لم ترزق الا به حتى
السقط له اسم ، ولما تجاوزت الأربعين ، وتقدد جلدتها ،
وغطت التجاعيد وجهها ، نزلت الحبة الثانية الباقية
وجئت أنا للدنيا ، وكنت وأنا صبي . حين تقول لى أمى
اننى آخر العنقود ، وبينى وبين أخى الأكبر عشرون
حملا مضاعا ، أتصور أننى وأنا فى بطن أمى قد أكلت
أنا الحبات المتهرئة ، لقي كل اخوتى مصرعهم على يدى ،
كأننى خلقت لتكون لدتى الوحيدة أكل الجنين .

ولأننى آخر العنقود دللتنى أمى ، تجلسنى على
ركبتها وترقصنى ، تأخذنى بين ذراعيها وتحضننى
ولكنى أنفر منها . الترقيص يصيبنى بالدوار والحضن
بالاختناق . أف ، أف ، كنت أريد الأم التى تدللى
شابة حلوة ، لحمها طرى ، وكرهت أمى ، كيف أقبل
فما تساقطت أسنانه ؟ واحتقرتها فى قرارة نفسى :
ألا تخجل هذه المجوز من أن تضجع لرجل ، كرهت من
أجلها أيضا كل النساء . . لم أنتبه وأمى تدللى أن عينا
ترقبى بغيظ مكتوم ، هى عين أخى الأكبر ، انطبعت
فى ذهنى له صورة يبدو فيها أضخم وأكبر من حقيقته ،
لازمنى هذا الوهم حتى الآن ، هاهو جالس فى مقعد فى

آخر قاعة المحكمة ضئيل ، ولكن يأتيني منه اشعاع قوى
كانه هبوا النار ، لا يحفل أن يتقدم الى القفص ، ويكلمنى ،
ويسأل عن أحوالى يأتى تأدية لواجب مفروض عليه ،
بل لعله فرحان لأننى وقعت ، وخلت له الدنيا • نظرتى
لا تثبت على وجهه حتى تعدل عنه ، لا يعرف أحد أن هذه
النعجة الرخوة فى يد امرأته الجالسة بجواره تأتى
للتسلية والفرجة بنت الكلب ، كان من أشد الوحوش
ضراوة فى معاملتى ، النعجة تستأسد ، وماذنبى اذا
كان أبى لم يعد مرة الى داره وهو سكران الا تعرش
به وضربه ضربا موجعا ، وضرب أمى أيضا ، وكنت
أختبئ فى ركن ، وأسلم من يده ، واذا عاد وهو صاح
طلبنى ، وأجلسنى بجانبه ، وغافل أمى ، ودس فى
يدى قرشا ، لا أدرى هل أحبه أم أكرهه ، كما أكره
أمى ، ولكنى كنت رغم هذا التمزق أحس باطمئنان ،
لأننى فى حماه ، من هذه العين التى تراقبنى بغيظ
مكتوم ، عين أخى • أكذب اذا قلت اننى أذكر أبى
بوضوح ، هو فى ذهنى وجهه مقدد مضنى فيه ثلاثة
صفوف عرضية من الثقوب ، كرسم الجمجمة على كشك
الكهرباء ، وشعر كث قدر متهدل على العينين ، ملتف
حول الفكين والذقن وفوق الشفة ، وجهه لشبه شىء

بالمقشّة ، ورائحة بخر فم تزداد حين يكون مخمورا ،
وسعال متصل بالليل ، ومن الجسد كله يخرج نزح من
التعب والارهاق والعناء والشقاء ، من أجله وبسبب
نفرت من أن أكون أباً .. حد الله .. ستكتفى نفسى
بنفسى وعند الاضطرار سأسطو ثم أهرب ، وسأحطم
من فورى كل شيء سطوت عليه ، لئلا يبقى حبلا يربطنى
بواجب .. سأعيش حرا ، وليبق الأسر والعبودية لكل
الناس .

صباحية موت أبى ضربنى أخى أول علقة ، تحرش
بى من الباب للطاق ، تضخم شبحه حتى ملأ المندرة ،
الفيظ المكتوم فى عينيه نطق وطفح ، نظرتة اتقدت
كالشرر ، وبانت لذراعه عضلات لم تكن له ، اندلقت
الدماة والقسوة على وجهه . هل وجوه الرجال جميعا
تخفى هذه القسوة وهذه الدماة ؟ اذن لم يبق الا وجه
الطفل ، هو وحده الذى يصدق فى وحيه بالأمان .
بالرقة ، بالوداعة ، بالوسامة .

فى تلك الليلة وأنا راقد فوق الفروة فى ركن
المندرة أحسست بأننى وحيد ، منقطع عن العالم كله ،
ضائع لا حمى لى ، مقهور ، عاجز ، أعلم أن روحى لن
تنال شيئا من شهواتها الا فى الأحلام ، أما فى اليقظة

فبالحيله ، بالخطف ثم الهرب . لا بد لى أن أقنع بمتعة
لدقيقة ان استعصت متعة لساعة ، ولا مفر لى من أن
أستتر ، أن أعيش بوجهين : وجه أمنحه للناس ، وجه
ولد وديع طيب مسالم . . . ووجه متقلص من عناء
التدبير والخوف من الزلل وهتك الستر .

انبعثت من عيني دموع سخينة . المنسدة كلها
تضغط على صدرى ، كأنما جسدت شبح أخى ،
وأحسست بيد عجفاء تريد أن تربت على رأسى ،
فأشحتها بأشمئزاز ، وأدرت وجهى للجدار ، وأخذت
أتنفس من خلاله جو التل القاتم وراءه ، تل زينهم الذى
يستند اليه بيتنا ، هنا مملكتى التى أنعم فيها بالحرية
بالانطلاق ، هنا ستنال روحى كل شهواتها ، وماهى
الا شهوات محددة ، قد لاتتعدى الواحدة ، هى من حق
كل انسان ، وأخذت أضرب بنخالى فى جوانب التل ،
وقد أصبحت أعرف كل شبر فيه ، وأنبش بأصابعى فى
أرضه الرخوة ، وأتشمم رائحة ترابه التى ينتفض لها
عرق من جسدى ، حتى سرقنى النوم شيئا فشيئا وغبت
عن الوجود . وفى الصباح بدأت لى عادة جديدة ، أن
أقضم أظافرى وأنا سارح اذا كنت وحدى .

وتوالت علاقات أخى ، وزادت قسوته . جرنى مرة

وأنا عريان كما ولدتنى أمى الى قسم البوليس ، وطلب
من الضابط تاديبى لأننى ولد كسلان خيبان ، قليل
الأدب ، أقضى النهار الى العشاء فى سمرجة بالتل ، قد
أغفر لأخى قسوته الا أن يفضحنى أيضا أمام الناس .
قال له الضابط : كل الحارة تحبسه ، وتقول انه ولد
وديع شديد الحياة ، أجابه أخى : لأنك لاتعرفه - ياما
تحت السواهى دواهى .

بعد شهر واحد من موت أبى كان أخى قد أخرجنى
من المدرسة الابتدائية ، وبينى وبين الشهادة سنة
واحدة ، وأسلمنى الى ترزى أتعلم مهنته ، كان يستولى
على أجرى ، ولا يعطينى مصروف يدى ، واذا علم أن
أمى دفعت لى قرشا من ورام ظهره ضربها وضربنى ،
مع أننى كنت قد بلغت ، واخشوشن صوتى ، وطس
شاربى .

ها أنذا أصعد التل بعد الفروب ، يدى ممسكة
بيد صبى صغير من أبناء جيرة البيرة سمح الوجه ،
وديع ، يده ناعمة رقيقة . أبتسم له وروحى تئن من
الضياح ، والوحدة ، والحрман ، من معاناة الضغط
والقسوة ، من انسداد كل خرم أستطيع أن أنطلق
منه . لا بد لهذا البركان المكتوم أن يتفجر . وكان

لأنفجاره دوى الأجراس فى أذنى • غبت معها عن
وعى • وبقي فى الغيبوبة مع ذلك احساس بأن روحى
قد مستها شحنة كهربائية عنيفة • تسحقها وتنفضها
فى أن واحد • فيها موتها ونشورها معا • ونزلت من
التل وحدى أقصم اظافرى • وأذوق طعم التراب المندس
تحتها •

ولما عرفت كيف أخطو أول خطوة سرت فى الدرب
بعد ذلك بسهولة واطمئنان • كان دق الأجراس أصبح
يومئىء الى من بعيد • ويدعونى الى لقاءه دهوة مشتاق
الى مشتاق •

رفعت الجلسة للاستراحة • مد العسكرى حارس
القصر بسيجارة اليه • هو وكل شيء من فى السجن
وراء القضبان أو خارجها • لهم اعزاز وحب لهذا
الفتى • لوداعته • ورقته • ولكنى قطعت الحبل الخفى
الذى كان يشدنى اليه لألتحم به • وأعيش حياته • لم
أذهب للزنازة • بل عدت الى بيتى • سألتنى أهلى أين
كنت • أجبتهم : كأننى كنت فى حلم دهمنى فيه كابوس
لمين فظليع • رأيتنى كأننى أخطو فى تل زينهم
وبارشادى استخرجت اثنتى عشرة جثة مهتوكة لصبية
صفار • ماتوا خنقا • وبقيت ضحايا أخرى لم يعرف

أحد عددها الا أنا ، رأيتني وكأنني .. قطعوا كلامي
قائلين : اتظل طول عمرك وليس لك قول الا كان
مسبقا بكلمة كان .. تعينا من كان هذه .. ألا شيء
عندك هو الحق والصدق والخبر اليقين .

سارق الكحل

الذى يلف يدي منذ الشتاء ثقل على ، وأصبحت
لا أطيقه ، وقد تقدم الصيف واشتد الحر • يقول لى
الطبيب انها بثور تنقره دون بنات جنسها الغبيات
بالدهام والحيلة ، هن يتساقطن كالذباب الدايع على
الأقويام فتفتك بها مناعة الأجساد قبل أن يصرعها
دواء ، أما الخبيثة الماكرة فتحوم كالعقارب على أجساد
وأرواح ينخر فيها من قبل كالسوس أعداء عتاة ،
وتصبر حتى اذا وجدت لها من الضعف منفذا تلصصت
ودخلت ، وجلست وتربعت ، ونصبت سرادقها بسماجة ،
ورفعت أعلامها بوقاحة ، ومضت تبيض وتكثر على
هواها ، فليس أمامها الا خصم متهالك ، كل سلاح
يوجه اليها ينكسر أولا فى يده •

بدأت أكره نفسى وأكره الناس ، أو بالأصح زاد
كرهى لنفسى وللناس ، وهم يمدون لى يدا صافية مبرأة
مجلوة ، لم انتبه لجمال اليد الا بعد أن ابتليت بهذه

البثور ، ثم أتسلى بالقول لنفسى ان المصايبة هى لحسن
الحظ يدي اليسرى ، فبقيت لدى يدي اليمنى تقوم وقت
الشدة مقام اليمين ، فلم يتأثر نمط حياتى كثيرا . اذا
صرفت الخادم كالعادة قبل المساء استطعت أن أعد بنفسى
لنفسى اللبن والشاي ، وجلست كمألف طبعى لا على
المائدة بل أمام منضدة الراديو ، على حافتها كتاب مفتوح
وأغمس يدي اليمنى قطعة من الخبز المجفف وأقضمها
وأضعفها وأبلعها على مهل ، فأنا أكل وأسمع وأقرأ فى
وقت واحد ، وتكون النتيجة أننى لأفهم ما أقرأ ولا أطرب
لما أسمع ولا أتلذذ بما أكل ، مع أننى أحب هذا الكتاب ،
وأسير ساعة لأشترى هذا الخبز المجفف من قرن فى حارة
لا يعرفه كثيرون ، ولكنى اكتشفته صدفة وأبقيت خبره
لنفسى وحدها لكن .. ماذا يهم !؟

ان الوقت يمر بسلام كأنه هدنة ويسلمنى الاعياء
الى النوم ، خلوة لا أدري أنا ضائق بخرسها أم سعيد
بأمنها .

وفجأة تغير نمط حياتى ، اننى أسكن الطابق الأرضى
فى منزل قديم ، أما الطابق الثانى فهو أصغر ، بناه
صاحب البيت «وطلاه» ، جدراناه نصف طوبة ، وسقفه
ورقة سيجارة ، وحجراته الثلاث ضيقة كالحق ، وأجره

مع ذلك مرتفع فظل زمنا طويلا شاغرا ، وتمنيت أن
لا يجد مستأجرا فاننى أحسب لمناكفة الجيران ألف حساب
وفى يوم . . . أحسست بضجة على السلم ، وقع أقدام قوية
تصعده خطفا على طرف حذاء يزيق ، وتهبطه دقا بالكعب :
صاحب هذه الأقدام ولا شك رجل سهلى لا يضبط حركته ،
وسمعت كلامه مع رفيقه فاذا بصوته أجش ، يغمغم
باللفظ ولا يفصح به ، هذا رجل فكره المعفرت أقل صبورا
من لسانه .

وما علمت رغم انصاتي سبب ضحكاته القصيرة
المدوية كالرعد : هذا رجل هلهلى . . . يضحك عمال على
بطال ، وغاب عني من قبل أن أتصيد وجهه من خلال
النافذة .

ثم حمل للبيت بعد أيام أثاثا جديدا لنج ، كأنه
منديل صرت فيه كل الألوان الخفافي من بمبة وأصفر
وفستقى ولبنى ، فادركت أن الشقة ستستقبل عروسين
جديدين تكون أول اقامتهما فيها هي ليلة الدخلة .
لا أدري لماذا ابتسمت لهذا الحاطر ، هل الفرح يعدى؟
وتحرقت نفسى شوقا لمعرفة جارى ، وشوقا أشد لرؤية
عروسه .

وبعد أيام أيقظنى على وجه الفجر وقع أقدام تصعد

السلم ، متمهلة هذه المرة ، وسمعت همسا بين رجل وامرأة وخشخشة ثوب ينبىء أنه فضفاض ومن الحرير الثقيل ، لاشك أنها تستند الى ذراعه فيدفعها برفق ، ثم اندلق نور الشقة فى الحجرات كلها ، وأخذت الأقدام لا تكف عن التجوال يصحبها صوت مقاعد تنقل من مكانها ، ثم ساد الهدوء ، وأطفئت الأنوار ، وأغلقت النوافذ ، فتشاغلت عنهما وأنا أبتسم ، ونمت ويدي اليمنى تحت الوسادة تحت خدي وقد اعتزمت أمرا .

استيقظت مبكرا وأعددت فطورا جميلا لاثنين وفاكهة منتقاة ، وأرسلتها مع الخادم على أكبر صينية عندي ، فأنا من دقة قديمة . ومن عادات قومي أن يقدم الجار هكذا تحيته للجار الجديد ، ولعلى أيضا كنت متلهفا على فتح باب التعارف .

طرقا بابى فى أول مرة نزلا فيها معا أى بعد ثلاثة أيام لم يبرحا الدار قط خلالها ، وهكذا رأيت مصطفى ووجيهة . هو شاب يميل الى البدانة ، تزداد وضوحا عند تأمل يديه البضتين الصغيرتين لاتناسب بين حجمهما وحجم جسمه ، لاتخطيء العين حرصه على أناقته وانسجام بذلته ونظافة ياقته وقميصه ، دب الصلع فى مقدم رأسه وكأنما رش عليها من كوز عجين الكثافة شعراته القليلة ،

تحسبها ملصقة بصمغ ، يلبس نظارة طبية غليظة تضخم
سواد عينيه فلا تدرى من أية زاوية ينظر اليك ، وهل
هو أحول أم لا ، وأقلقنى منه انه يجذب فجأة وسط
الحديث نفسا من أحد منخريه دون الآخر ، يتقلص على
الفور خده المجاور ، وتزر عينه وتلتفت اليهما خطفا
أرنية أنفه .

أما وجيئة فقد خيبت آمالى ، شعرها الأصفر المصبوغ
يلون فاقع سوقي يموج النفس ، هائش على رأسها وفوق
ظهرها ، وجهها مستدير ، ملظلمة الخد والذراع ، فى
يدها أساور من كل صنف وشكل ، صاحبته سكرى
بدندنتها ، هذه هى منتهى العياقة عندها ، لو ذهبت الى
زار لفقرت على صاجات بائع عرقسوس ، ولما جلست
اندك بعضها-فى بعض ، وتقوست رقبتها مثل السوستة
فانفرز رأسها بين الكتفين وبرز لها نهدان ضخمان .

ولكن ماضير كل هذا ، ورونق الشباب قد جللها من
رأسها الى قدمها ، بشرة صافية مودة ، وعينان براقتان
مرحتان ، وأسنان سليمة تلمع ، وصوت رخيم طروب ،
بخار جسدها عرف زكى ، ولمسات أصابعها تجمع بين
الضعف والحنان .

حكمت أنها ليست من طينته • أين وجدها؟ ما الذى
فتنه منها؟ كيف طمس سحرها بصره ، أسئلة بايخة
جدا • الأعمى يتبين أنهما واقعان فى حب عنيف ، انه
يكاد يأكلها بنظراته وهى تكاد تمضغه بأسنانها ، لا يقوى
أمامها على الجلوس فترة طويلة ، فهو يقوم ويذرع الحجرة
جيئة وذهابا ويداه وراء ظهره يتأجج بالنشوة والفرح ،
يطبطب على ظهرها مرة وعلى ظهرى مرة ، اناء حبه امتلا
وفاض ، انه يضحك من قلبه وبملاء فمه ، أما هى • •
فمن أجله وحده ابتسامتها ، فاذا غاب غابت ، كالظل مع
النور ، هى أمامه تحس أنها تجلس فى ضوء مصباح فى
بيت آمن والليل عاصف غطيس ، أو أمام مدفئة فى ليلة
قر ، انه الرى الذى تنشق جذورها ويتمشى فى غصونها
ويورق عليه زهورها ، لو فتحت قلبها لوجدته فيه ، ان
رسمه يتلكأ قليلا على مقلتيها اذا ولى شخصه عنها ، كنت
أتوقع كلما لمسها أمامى أن تنبعث من اللمسة شرارة تنز ،
ولم يتركنى فى أول لقاء حتى سألنى بلهجة المنتصر
الفخور :

— بدمتك أرايت ياعم كم هى جميلة • • زوجتى
المقطقطة ؟ كانت منيتى طول حياتى ان أتزوج من
شقراء •

وعشت فى ظلّهما بالرغم منى ، توثقت بيننا صداقة
وخلطة ورفع تكليف ، كأنى صعبت عليهما فى وحدتى ،
فقررا أن يضعانى تحت جناحهما ، وامتلا البيت حبورا ،
ألفت لىالى طويلة مليئة بالضجة كأنما تدور فوق السقف
(ماتش كورة) ٠٠ انه يطاردها وتطارده ، يصططمان
بالأثاث ويقعان فوق المقاعد وتتعالى الضحكات ، أفته
فى أمسيات كثيرة يهبط السلم جريا ويمرود وفى يده
زجاجة ملفوفة ، ثم بعد ثوان يهبط السلم قفزا ويمرود
وفى يده قرطاس فاكهة ، لم أره يصعد السلم الا خطفا
كأنه مقبل لاطفاء حريق ، حبل غسيل مشغلق تتدلى منه
قمصان نوم وملابس حريمى داخلية وأثواب تجمع كل
الوان الشفق ، لو أقيم فى بيتنا فرح لما احتاج لغيرها
زينة . أصبحت أشم فى السلم وهو خال جميع روائح
الغورية من عطور وحناء ، فما بالك اذا كانت وجية
طالعة أو نازلة ، وهى تنزل تتحسس الدرج بطرف
حذائها كأنها تمتحن ماء فى حوض ستفتسل فيه ، نظرتها
قبل فمها تسمى على قدميها (يا أرض احفظى ما عليكى)
وهى حين تطلع لا يجد تعبها عونا له الا فى تقصيعها وحركة
متتالية من رقبتها كذراع مضخة يدوية ، يومها يمضى
على وثيرة واحدة ، يهبط مصطفى السلم مسرعا فى

الصباح الباكر ويعود بعد قليل وبين ذراعيه مطالب البيت ، فليس عندهما خادم ، وبعد قليل أسمع باب الشقة يفتح وصوت وجيهة وهي تودعه وتوصيه أن يأخذ ياله لنفسه ، وأسمع صوت قبيلات ، ويهبط مصطفى السلم يخبط الدرايزين يكاد يتعثر لأن وجهه ملتفت الى فوق ، وألح وجهه من شراة باب شقتى فأجده مضيئا بسعادة مطمئنة ممتزجة بشيء من الجد ، الغالب ... لاننى لا أسمع حركة ... ان وجيهة تعود لفراشها لأنهما لم يناما الا بعد منتصف الليل بكثير ، ألا ينتهى كلامهما وعبثهما؟ كيف يستطيعان وحدهما قضاء الوقت الطويل كله بلا ملل والوجه فى الوجه ؟ وقبيل الظهر أسمع وقع أقدامها ووش وابور الفاز . لاتطبخ وجيهة صنفا جديدا الا أرسلت لى طبقا منه . وبعد الساعة الثانية ، يقبل مصطفى وهو يحمل قرطاس فاكهة أو بطيخة أو شمامة كأنه يحضن بين ذراعيه طفلا عزيزا ، ثم تنقطع الحركة وقت القيلولة الى قرب الغروب فينزلان معا وقد أكمل كل منهما أناقته وزينته . تضع ذراعها فى ذراعه ، جسمها ملتصق به ، رأسها مائل على كتفه وشعرها الأصفر عى ضهرها زادت نكشته بعد خطوتين . . ثم يعودان فى العاشرة ، وأحيانا

بعد منتصف الليل .. ويبدأن من جديد مائش الكورة
والضحكات العالية . وحبل الفسيل يلبس ويخلع يوما
بعد يوم أشاير فرايحي .

شهور متتالية وحبهما لم ينقص قراطا واحدا ،
وسؤاله لي لا يتغير :

— بدمتك .. ألا ترى كم هي جميلة .. زوجتي
القطقوطة ؟

وذات ليلة ، قبيل الفجر ، استيقظت على دق شديد
متعجل على باب شقتي ، فاستعدت بالله وقمت ، انه
مصطفى يدخل كالمجنون ويقول :

— عندك أدوية كثيرة ، فهل من بينها دواء يوقف
القيء ..؟ وجيئة مريضة منذ أن عدنا ، أظنه هو
السحك الذي أكلناه ، عليه لعنة الله ، أنا خائف لأن لون
قيئها أسود !! .. !!

قلت له : «لعلها علامات الأمومة» فأجاب من فوره :

— المهم أن لا تتألم .

وفي الصباح ، تأخر في خروجه ، وعاد مبكرا ، ولم

يكذ يصعد حتى نزل من فوره وقال ووجهه أصفر ويداه مرتعشتان .

ـ جسدها كالثلج ، ديرنى ماذا أفعل ؟

استدعينا الطبيب ، ولم يكتمنى من وراء ظهر مصطفى أننا تأخرنا فى استدعائه وأنها مصابة بتسمم وهبوط شديد فى القلب ، أصبح يفوت كل ضربتين ضربة وأسرعت الى التليفون عند البقال ، وجرت .
أنادى بوليس النجدة أم الاسعاف . وعجزت يدي من الدهشة أن تجسد الرقم الذى أريده ، وبدأ لى أن أكبر مشكلة فى الحياة ، هى العثور وقت الهلع على رقم فى دفتر التليفون !! . .

وأخيرا . وصلت عربة الاسعاف ، وصعدت مع القادمين . فلما رأوا وجيئة رفضوا نقلها ، كان واضحا أنها تلفظ أنفاسها الأخيرة .

ظل مصطفى طول الليل راكعا على الأرض بجانب الفراش ممسكا بيد الجثة يبكى وينهته بحرقه ، وتنبعث من كهف جوفه صرخات ممزقة ، هو والبكاء لسان واحد لأفمى مشقوق نصفين ، كأنما يقضه نمت فى الدنيا حلقة الجزع فى أبهى صورة ، كل جزع سابق كان مسخا

يتهيأ للكمال . ليس هذا برجل يبكي امرأة . وإنما سمعت
الأذان لأول مرة بكاء بكاء الانسان على قدر أخرجه
مطرودا من الجنة ، وحرمة رؤية وجه ربه ، لم يترك اليد
حتى بعد أن امتلأت الحجر بنساء كثرات من الأسرتين
يضطربن ويولولن ، ويختفى في الضجة صوت مقرئة
كفيفة ، حاولنا عيثا أن نزيحه من مكانه فلم نستطع ،
كان حزنه صلب من حديد ، لم أوقن بطيبة قلبه وبراعة
طبعه الا وهو منهدم ، لم يسنده حساب أو ذرة من الأنانية .
لم تهمس غريزته ككل الأحياء أمام الميت ولو كان أعز
الاعزاء : «يا فرحتي لم يكن الدور على» .

وفي الصباح ، ونحن نسير في الجنازة ورام نمش
عروس تتبختر ، مزين بالطرحة والفل ، كنت أرى لأول
مرة أبشع صورة لحطام رجل ، لاشك أن يديه عملتا في
غفلة منه فلا أدري كيف واتاه عقله ، ومن قعر أى
صندوق استخرج هذه البذلة السوداء القديمة الضيقة
القصيرة ، التصق قماش ينطلونها بساقيه ، بدا فيها كأن
حدأة الفقر خطفته فجأة بمخالبها ، وبقي وسط الزحام
مدللا كالمشنوق ، شعرات راسه هشيم على الصدغين ،
تكشفت له صلعة صفراء لا تغلو من نقر وأخاديد ، هبطت
نظارتها مع الدموع الى منتصف أنفه ، زهرة العين من

فوقها مضمضعة متهرئة كأنما سحقته على الأرض أحدى
غلاظ ، هي من دم يطفو فوقها بؤبؤ غريق ، يمسك
بذراعيه على الجنين رجل من أقاربه وأنا ، ويمشى بيننا
مشية المساق الى حجرة الاعداد ، انخلع قلبي اليه .
ووددت لو أننى أم وهو طفلى فأخذه فى حضنى وما أزال
أناغيه حتى يهدأ وينام ، أحسست به كفرخ عصفور وقع
من عشه ، ملبد الزغب بالتراب ، منقاره العطش مفتوح
ككف يبسطها متضرع ، وهالنا ساعة الدفن أنه نزل الى
القبر وأبى الخروج وهو يصرخ بصوت مبحوح «دعوني
معه ! أريد أن أموت وأدفن بجانبها ، لا أريد أن أعيش
أعيش لمن بعدها ؟!»

واستطعنا بعد لآى ونحن ننزل درجة الى الظلام ان
تصل أيدينا الممتدة الى ذراعيه ونشده بقوة حتى
أخرجناه .

أبى مصطفى أن يترك الدار ويذهب الى أسرته .
قال انه يريد أن لا يحرم من رائحة وجيئة ، كلما فتح
دولابا ورأى ثيابها ، وألقى مراسيه أغلب الوقت عندى ،
مر اليوم الأول لا ينقطع فيه عن التدخين ، لا يذوق الأكل ،
يقطع الحجرة ذهابا وإيابا ، ويده وراء ظهره ، هذه
الاعياء بعد منتصف الليل فارتمى ونام ببذلته ثم هب

قبل الفجر وهو هائج كالمجنون ، ومن جديد بدأت جولته فى القفص ، نوبات البكاء متقاربة ، يضع كفه على وجهه وينهذه ، أصبح صوته فحيحا ، وفى اليوم التالى قدمت له طعاما والملحت عليه الحاحا شديدا أن يجلس ويأكل ، فعاف الأطباق كلها وأخذ قطعة من الجبن الأبيض وحاول بصعوبة مضغها وبلعها ، وقطع اللقمة الثانية . وقبل أن يعدها رماها وقام ، أعطيته فنجان قهوة ، فلم تحسن يده حمله لارتعاشها ، وشربها كطفل يتعلم الشرب ، بلل حوافى فمه واندلق بعضها على الطبق ، هكذا فعل أيضا فى اليوم الثانى ، ولكنى رايتة فى اليوم الثالث حين أفرغ الفنجان ، أمال الطبق على فمه ومص طلامه ، محال أن يكون مصطفى - الذى طالما ملا بيتى بمرحه وضحكاته - هو هذا الرجل الذى أصبح مجرد ثقل فى الحياة ، كوتر العود حين يرخى تمسوت عليه اللمسة فلا يرن ولا يطن ، قميصه متسخ ، رباط خذائه مفكوك ، لحيته بنت حسك قمىء يسوحى بالجفاف والقمامة ، تفوح من جسده رائحة العرق ، يده الناعمة أصبحت كورقة سنفرة ، وكلامه من كثرة التكرار كالطوب ، وحركاته تمثر أعمى أو سكران ، وخيل الى أن عينيه تبرقان أحيانا رغم الحزن بوميض خنجر متستر

فى يد قاتل ، ونطلقت لى من تحت القنصاع قسوة كلها
جيزوت وعزم وعنقوان ، تنظر الى شزرا بعداء لانى لست
متنه كسيحا مكبلا بالحزن • ماهى هذه القوة •! ١٩٠٠!

وبدا مصطفى يطلب قليلا من الطعام ، ويطلب
القهوة بنفسه ، وينام ما بعد الفجر ، لكنه مصر على
البقاء فى الدار لا يخرج قط ، وعلى أن لا يخلق لحيته
وأن لا ينقطع عن التدخين وعن ذرع الحجر ذهابا وإيابا ،
وعن البكاء بصوت مرتفع كلما جاء اسم وجيهة على
لسانه •

وانتهت أيام أجازته فخرج لعمله ببذلته السوداء
القديمة الضيقة القصيرة ، ولكن نظارته عادت الى مكانها
ورباط حذائه مشدود وقميصه نظيف ، وذهب أولا
للحلاق وأسلم له لحيته ، أصبح اذا عاد لا يخرج ، يوزع
وقته بين شقته وشقتى ، لا يطيق أن يأكل وحده ، وأصر
على أن يأتى لى هو نفسه كل يوم بفاكهة اليوم ، وعادت
القرطيس الى حضنه ، ولكنه ما أكل من فاكهة جديدة الا
دمعت عينه ، يمسحها بمنديل لوجيهة يحتفظ به فى
جيبه • وفجأة طرقت أذنائ ذات يوم وأنا أسمع يضحك
ملء فمه حين سمع جارة لنا سليطة اللسان تنهال من
الشباك على غريمة لها بسباب من الصنف الحيانى • وقام

مصطفى وفتح الراديو اذ كان قد حان موعد نشرة
الأخبار .

وأخبرنى بعد أيام أنه ذاهب مع زملائه لمقابلة
الوزير ، فرأيت في الصباح يخرج بأحسن بذلة عنده
وبأشيك رباط رقبة . وقبل أن ينصرف قال لى :

— ماقولك فى اكلة ملوخية اليوم ؟! ان نفسى
تشتاق اليها . وتسهر الليلة لسماع أم كلثوم ، انها
ستغنى أغنية جديدة ١٠٠

وحين حاولت بعد خروجه أن ألبس ثيابى . لم
أشعر أن يمدى اليسرى تنقح على عندما أحركها ،
وأحسست أنها تنادىنى بصوت خافت لتهمس الى بخير .
فلما خلعت الضماد وجدت ماء الحياة والصحة يتفرق
فى صفحتها ، مجلوة . . مبراة من السقم ، فهمت أن
خبرها هو عدولها عن الاضراب العنيد الذى رتمت فيه .
ووجدت فيه أكبر دلع من فرط عنايتى بها . كنت قد
نسيت همها أياما طويلة لأنى أغرقته فى هم صديقى
مصطفى . أياكون فى النسيان وحده سر شفائها ؟!

ومرت أيام تنساب كالرمل فى يد الريح حتى
ينتقل الكتيب كله من مكان الى مكان ، لا أحد يدرى

متى وكيف ، فإذا بمصطفى يخبرني ذات يوم أنه ذاهب
للاقامة مع أسرته لأن حياة العزب الوحيد قوضى ، وأن
أكثر ملاحظته قد ضاع بين الفسالة والكواء .

وهاب عنى مصطفى والدنيا تلامى ، ومضت مدة
أظنها لا تزيد عن سنة على وفاة وجيهة ، فإذا بمصطفى
يدق بابي ذات يوم ويدخل يسحب وراءه فتاة تتقدم
على استحياء ، سمرام قصيرة نحيلة ، شعرها أسود فاحم ،
تكون قليلة فوق رأسها ، وأشار قائلاً وهو يضحك :

حضرتها تبقى عروستى .. وحضرتى .. أبقى
عريسها . تسمح تسلم على عواطف !

وعلمت منه فيما بعد أنها أرملة مثله ، وأنها فقيرة
باعث كل أثارها قطعة قطعة . وحين عرفها فى محيط
أسرته كانت قد أصبحت على الحديد ، فإذا بقلبه يخنو
عليها حنو غصن ندى . ألم أقل لك أن مصطفى رجل
طيب ؟ أحسن كأنه عثر على طفل ضائع فى مسالك
المدينة ، تكاد تدهسه زحمتها ، ولم يلبث الحنو حين فاض
به قلبه أن التقت يده بيند نظرة من عيون عسلىة
وديمة .. مستسلمة . لاتعرف الشر ، إن تكن كنوزها
قد نفدت ، فانها كأمنا الأرض تحيا بعد موات ، اذا

جاءها الغيث وتعود تهز أعطافها وهي أبهى رواء ، ومن
لمسة اليدين انبثق مارد ليس بغريب على مصطفى ..
اسمه الحب .

وجاءنى مصطفى وحده بعد ذلك ، وتحول حديثه
سريعا الى الأزمة العامة وأزمته هو ، وشعرت أنه يمهّد
له عذرا ويحاول أن يبرىء نفسه من تهمة تنخر في
قلبه اذ قال بعد ذلك :

— الله يلعن أبو أزمة المساكن ، كان نفسى الألقى
شقة تانية أعزل فيها وتكون دخلتنا هناك .

سكت والتزمت الصمت ولم أرد ، فأردف :

— عواطف ما عندها ش مانع تيجى فى الشقة القديمة
وعلى العفش بتاعى بس عاوزه ولو سرير جديد
لكن ..

فقاطعته لأحمل عنه الوزر وقلت له :

— لو كنت محلك وظروفي مثل ظرورك لسمعت
كلامها ، الظاهر انها بنت عاقلة وقنوعة .

ويمر الفصل الأخير كالفصل الأول ، ليس بينهما
ستار ينزل ويرتفع ، ماتش الكورة يعود من جديد فوق

السقف ، الضحكات تتعالى ، مصطفى ينزل فى الصباح
ليأتى بمطالب البيت ويعود حاملا قراطيس الفاكهة ،
حبل غسيلهم يزهر من جديد ، وها هو ذا مصطفى مع
عواطف فى شقتى ، هى جالسة (كحمامة متستتة فوق
سور خرابة أمام ذكر له صبوة يتحنجل) ابتسامتها
الصامته موزعة بين عينيها وشفتيها ، أما هو فيذرع
الحجرة ذهابا وإيابا ويقهقه بملء فمه ، ويقول لى وعيناه
مرحتان ، قد غاب عن نظرتهما وميض الحق الذى
أخافنى ذات يوم :

— بدمتك .. ألا تسرى كم هى جميلة .. زوجتى
القطقوطة ؟ كانت منيتى طول حياتى أن أتزوج من
سمراء ! ..

أود أن لا يكون قد لحظ أننى طأطأت رأسى ، لم
أستطع أن أمنع نفسى من تذكر وجيهاة ، وخيل الى ان
روحها مغنا وذكرت باستهزاء يوم تمنيت أن أكون أما
تلقم الثدى وليدها الحزين فما نفعه درها ، ومضى
كصغار القطط يهتدى وحده الى ثدى أمه الحياة التى
لا أم غيرها للسلوك والنسيان ، فلما ذكرت هذا رفعت
رأسى وأقسمت فى سرى أن لا أحزن على شىء قط ،
مادام كل حزن مآله فى هذه الدنيا الى النسيان ، ومع

ذلك أحسست لقسمى بشعور غامض غريب ، خليط من
البجاجة والامتعاض ، ومن الخوف والاحتقار ، حين
أدركت أنه قسم رجل له عقل وليس له قلب ، رجل
أناني دنيء .

امراة مسكينة

تقلبىت الأم على الجنبيين أغلب الليل ، وقامت قبيل
الفجر — كما تفعل يوم سفرها بقطار الظهر • ومشت
محموقة الى الحمام لتتوضأ ، لاتبالى على غير عادتها بوقع
قبقاها على البلاط ، يود قلبها أن تستيقظ فتحية زوجة
بنها قبل موعدها ، يفيظها منها أنها نؤوم الضحى ، بل
تود أن يستيقظ كل من فى البيت ، لتجتمع الأسرة كلها
من أول النهار ، وتعد البزازات لحفيدها ميمى ، وتأتيها
شقيقته آمال فتأخذها فى حضنها وهى على سجادة
الصلاة ، وتمد يدها من تحت الطرحة البيضاء وتربت
على رأسها وتدعو لها وترقيها وهى تتفل حولها • انها
أصبحت على غير مألوف طبعها لاتطبق الوحدة ، وأمامهم
يوم مزدحم وزيارة للمستشفى وأكثر من مشوار ، وحين
تمتت والماء ينصب على كفيها : «أشهد أن لا اله الا
الله» كان وجهها لايزال ينطق بالتضعع ، يختلط
الاعياء فوقه بتجهم المجوز ، ولكنها حين أضافت :

«وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله» طفرت الدموع
السخان فحاة من عينيها وأصبح لها وجه طفل مسحته
وبللتة أواخر نوبة من البكاء . ان سيرة الرسول
شفيع أمته يوم القيامة تذكرها دائما بالموت ، وتمس
قلبها بحزن حنون ، حتى وهى فى عرس ، فكيف بها
اليوم وهى ضائعة مغمومة ؟ ورفعت كفيها وجبهتها الى
السقف ، كان نظرتها لاتراه وتنفذ منه الى السماء ،
وانت بصوت متهدج ، بسؤال هو فى حقيقة الأمر دعاء
وابتهال :

— يا ترى يا ابنى يا فؤاد كيف حالك اليوم وكيف
أصبحت ؟

بعد ساعة كانوا قد فرغوا من الفطور بسرعة
وبغير نفس ، بلع لا أكل ، ووقفت فتحية امام المرأة
ترتدى ملابسها وتستعد للخروج ، انها أقصر قامة
وأكثر بدانة من صورتها لدى الغرباء ، أحذيتها كلها
ذات كعب عال ، والمشد الذى تلبسه بجهد يضغط
جسمها الفاشل بعد ولادتين وسقط ثلاث مرات ، الى
خصر ضامر فوق عجيزتها ، العينان اللوزيتان من أثر
الكحل تراهما فى المرأة فى صباحها دائرتين ضيقتين ،
واحمر جفناهما من السهر ومسح المنديل ، وان بقى

الانسان الأسود هو هو فى يقظته وصموده وتحفزه
وعميق فهمه ، هذا الماء المنعقد له اشعاع جوهر كريم
لا يتحطم . واجهتها مشكلة قديمة فى صورة جديدة لم
تصادفها من قبل ، ليس الخيار هذه المرة بين ذوق
وذوق ، او لون ولون ، بل بين وقع ووقع ، أى ثوب
ترتدى ؟ انها زوجة وقعت فى نكبة ، وزوجها فؤاد
مريض لا هو ميت ولا هو حى ، هى ذاهبة لاستجداء
عطف رئيسه ، وسيحيط بها كثير من زملائه ، فهل
الأنسب لها أن تخرج كمادتها فى أتم زينة فيكون من
وسائلها اغراء الأنثى وهو سلاح لا ينجب ، وتبرهن
فوق ذلك أنها امرأة من معدن أصيل لا يصدأ بسهولة ،
ستلحظ العين شجاعته كما تلحظ فتنتها ، أم تخرج
بلا زينة ، مهملة الثياب والشعر ، فينطق حالها بالوفاء
وانشغال البال والتعاسة ، فتكون أقدر على استدرار
العطف ، هى تعلم أن أفئدتهم لن تنشرح الا اذا رأوها
تذرف الدمع أو على الأقل تشيح بوجهها وتمسح عينيها
بالمنديل ، لهذه الفكرة صعبت عليها نفسها ولعنت
قسمتها السوداء ونطقت بانفجار المحقق .

— يا ترى ياربى ماذا سيحدث لنا غدا ؟!

وأخيرا اهتدت الى الحكمة ، خير الأمور الوسط ،

لبست المشد وثوبا جميلا فوقه معطف قديم ، تركت
شعرها وكحلت عينيها ، فكحل لسان الذكر نوع من
الدواء ، واختارت حقيبة يد صفراء ، عميقة ، لها
حمالة تعلق بها على الكتف ، تشبه حقيبة كمسارية
المترو ، توحى أنها قد تضع فيها وهي راجعة بعض
لوازم البيت ، ونبهت على ذاكرتها أن تشتري فى
طريقها عرضحال تمغة ، فمن يدرى ؟

دخلت على حماتها لتسلم عليها فوجدت آمال مكورة
لصيقة بجدها ، فغرزتها بطعن من أصبمها تحت
الابط وهو تقول :

— هيا هيا الى المدرسة ، انا لا أحب الدلع ، ماذا
حدث حتى تبقى بالدار ؟ بابا بخير وغدا يعود الينا
بالسلامة ، من يراك يظن أننا فى مأثم ، أنا أكره
التفويل .

وجهت اليها آمال نظرة استرحام وعتاب ، وأحست
أن جدتها تود أن تدافع عنها ، وحمدت لها أنها لم
تتكلم ، حديث القلوب يغنى عن الافصاح ، لم تبال
فتحية بنظرة اهنئتها ، ولعلها لم تقو على مواجهتها
فالتفتت الى حماتها وقالت بصوت مسكين قد هبطت
حدثه :

— أنا خارجة يائينا ، ادعى لى ، وأرجو أن أعود
بسرعة ، لنذهب ونلحق الجماعة ساعة الزيارة قبل
الظهر .

وقبل أن تخرج ، أرادت أن تطمئن على ميمى ،
وجدته راقدًا على ظهره فى مهد ، يرفس يديه ويلكم
بقدميه ، ويضحك للملائكة ويناغىها ، لا يعرف بمد
معنى اليوم ومعنى الغد ، مالت عليه ، كادت تقطع
وجهه تقبيلًا ، وإن أحنقها منه هذه الابتسامة فى غير
أوانها ، هى خلل فى الطبيعة ، تكاد تنطق بالسخرية
من هياجهم وتخبطهم ، انه يتمالى عليهم بأنه الذكى
الوحيد بينهم ، وإن الحل قد خفى عنهم دونه وهو
واضح كل الوضوح ، وهتفت له بذراعتها وهى
منصرفه :

— طور الله فى برسيمه !

لما خرجت انضم نسيم الصباح الرطب الى عزمها
فى دفعها الى المسير بتخطى سريعة قصيرة ، رأسها معنى
على صدرها ، ذهنها مكوك أكثر من قدميها سرعة ،
تارة يجرى الى الأمام وتارة الى الوراء ، انها تحس

بتمعب شديد لأنها لم تنعم بنوم هادئ منذ ليال عديدة،
هى لم تألف الرقاد وحدها فى فراش شاغر ، الوحدة
فيه تؤرقها ، حتى فى الليالى التى تمعب الخصام فى
النهار فيقاطعها فؤاد ، ويحزن ويلتزم الصمت وتعرض
هى عنه . كان يكفى أن يرقد بجانبها ولو أدار لها
ظهره حتى تستمد من سماع صوت تنفسه والاحساس
بدفع جسمه أنيسا يعيد النوم لعينيها ، سرها وهى
تتاجى نفسها وهى ماشية أن تذكر أنها كانت هى
المبادرة دائما بالصلح ، وتنسى كل ما حدث . هى سميدة
لأن الله سبحانه خلقها بأعصاب قوية . هيهات أن تطبق
عليها الهموم ، حتى لو جاءتها لاتتركها تنفذ الى قرارة
نفسها فيكون البلاء مزدوجا : هموم ونفس مريضة ،
بل تبقئها فى ميدانها الخارجى تصارعها فيه وتبقى
نفسها ناجية ، تنزلق عليها هذه الهموم كالماء فوق
الرخام ، انها تعلم أن أصحابها وأهلها يصفونها
بالشجاعة والثبات ، أما تطوعهم بوصفهم لها فى غيبتها
أنها مع ذلك أنانية قاسية فاتهم باطل ، ماهى فى
الحقيقة الا امرأة عملية ، عقلها فى رأسها ، أما فؤاد
وان سارع هو أيضا للصلح ، وارتاح له ، وحمد لها
اعادة الكلام ولو نفاقا لبرهة وعاد الى نعمته قبل الخصام

ليستطيع أن يأكل ويشرب وينام ويدخل ويخرج ويقلم ويلبس ، الا أنه كما تحس منه تبقى ذكرى الخصام محقونة في نفسه ، يكتمها ولا ينساها ، ينفجر أحيانا ويقول لها انه لا يستطيع أن يهضم أو يغفر الأسى تنزل به بلا جريرة منه ومن الباب للطلاق ، ومتى ؟ فى عين الوقت الذى يتوقع منها الاكرام والشكر ، أو فى عز الوقت الذى تكون فيه أعصابه متوترة محتاجة أشد الاحتياج لكلمة طيبة ولو كاذبة تنزل على قلبه بردا وسلاما ، الله يخرب بيتها .. هكذا وهكذا ...

هياج صبيانى وحماسة فارغة وغرق فى شبر ماء ، لماذا لا يقتدى بها ؟ الخصام الجديد عندها حادثة طارئة ، تأخذ قسمتها وتتمشى ، أما عنده فارث عتيد وذيل سلسلة طويلة تغل العنق ، لأن الصلح فى كل مرة يتم فى حكمة بتغليب رأيها على رأيه ، وانهزامه أمامها طلبا للسلامة ، وما عيب ذلك ؟ وهل لقواد رأى يوصل لبر ؟ مامعنى التمسك برأى خاطيء ؟ لمجرد الاستبداد؟ انه رجل لم يتقدم به العمر منذ طفولته ، لم تحسب يوم لقيته فى منزل احدى قريباتها أنه سيجرى وراءها ويسيل لعابه ويلح عليها أن تتزوج منه لأنه ميت فى دباذيب رجليها ، كانت فتحية تتمنى أن لا يندلق عليها

كل هذا الاندلاق ويضع عقله فى رأسه ويتم دراسة الحقوق وينال الشهادة ، فهمت بعد ذلك أنه يهرب اليها ويلوذ بها من أحضان تخنقه بها أسرة يأكل بعضها بعضا ، أسرة كبيرة عتيقة متشابكة لاتعرف فيها أبناء الأعمام من أبناء الخالات من كثرة زواج بعضهم لبعض جيلا بعد جيل ، والنزاع كله على ثلاثة بيوت مخلخلة فى حى الخليفة وعشرين فدانا من أرض آتلفها الإهمال لايعرف أحد منهم حدودها ، انها لاتندم الى اليوم أن انعطف له قلبها : أدب جم أصيل ، وجسم رياضى لدن ، وحياء لديد يغمر الوجه عند الكسوف بلون الورد ، وعين منكسرة عسلية صافية مبرأة من الخيانة ، والبياحة ، مأمونة العاقبة ، وهو فوق ذلك ابن فن ، حين يكون رائق البال يعزف على البيانو أغاني ضللت من شدة ابتذالها فينطلقها من جديد بشجن عميق لايخلو من تقصع وشخلعة وكانت هى حين قابلته يتيمة الأبوين تعيش فى كتف جدتها ، ليس لها من سند أو معين الا معاش زهيد عن أبيها ، أحست أن القدر يختارها لمركة ، وأنها هى وحدها القادرة على الانتصار فيها - انها لاترى بأسا من أن تعيش معه فى مبدأ الأمر على إirاده الضئيل الى أن يأخذ الله بيده ،

فقبلته ، ولم تنزعج حين رأت هذا الفتى الفاره يبكي بين يديها ليلة الدخلة ويتنهه كطفل ، وفوجئت بأن هذا الطفل المدين لها بانقاذه يحاول فى أيام الزواج الأولى أن يفرض عليها ارادته ، عجيبة ! لم يدم الصراع طويلا وانتهى بأن أسلم فؤاد اليها نفسه وطاعته وجيبه ، فهل طفت ؟ كلا ! بل وقفت بجانبه ، أدركت أنه لن يقوى على مشقة المذاكرة فأخرجته من كلية الحقوق وأدخلته مدرسة اللاسلكى للطيران المدنى ، وأصبح فى غمضة عين فى مركز مرموق وصاحب مرتب محترم ، وحل الرخاء وانقضت أيام الشدة ، الله لا يرجعها ولا يرجع اليوم الذى اضطرت فيه أن تبيع البيانو ، قامت بواجبها ، هى التى رتبت له بيتا ينعم بالعفاف والنظافة وضبط الميزانية ، وهى التى عمرت بيوت حى الخليفة ونجحت فى فرز نصيب زوجها بحكم قضائى ، وأصلحت الأرض فأصبحت جنة وسط خراب اذا كان الهيام قد بلغ حده مع الزمن ثم انقلب الى ألفة ، ورابطة الزواج الى عشرة انسان لانسان لا أنثى بذكر والهواية الى وظيفة ، فهذا أمر طبيعى ، وهذا هو شأن الناس جميعا ، هذه هى سنة الحياة • إن مجيء الأولاد يعيد ترتيب القيم والهموم على نحو آخر ، جيل ينبغى

أن ينسى نفسه ودلعه من أجل جيل جديد صاعد ، ان كانت قد نزعت من اسرة أمه وأبيه حتى قبل القضية فلأن أقرباءه جميعا متعبون جدا ، ليس وراءهم الا النكد وخوثة الدماغ ، يكفيه لكي لا يشعر بالوحدة أنه أصبح لا يخرج الا رجلها على رجله ، لاتستطيع عين غريبة أن تلاحظ أقل خلل فى البيت ، اذا تسربت أنباء الخصام فمن تفلت لسان فؤاد لاسانها هى ، انها لاتحب الشرثرة والشكوى ولا تأمن أحدا قط على سرها ، كل انسان طبيعى غير خيالى لو كان مكان فؤاد لعبد نفسه سعيدا ، كانت كلمة الحق تخرج أحيانا من فمها مؤلة وان كانت صادقة ملفوفة بالضحك ، فتقول له وهى به ودود حدوب : بدمتك ، لو انك تزوجت غيرى ، فتاة لعوبا من الصنف اياه ، أما كانت لعبت بذيلها ، وشلفطت حياتك وجابتك الأرض ، وسممت عيشك بالشكوك والريب ؟

لو كانت مرآة الصباح لاتزال أمامها فى تلك اللحظة وهى ماشية لرات فتحية على شفيتها ابتسامة مريرة ، فؤاد مغفل ! لكنها هى بسلامتها شيخه المغفلين . لقد ظنت فى العهد الأخير أن الساقية تحت التعريشة ستظل تدور ، انقلب صرير عسلجة التروس مع الأيام

الى نغم سلس مخدر ، واصبح الجلد منعسا لا يؤلمه سوط
والخافر غليظا لا يجرحه مسمار أو فص حجر ، وقدور
الماء تصب بانتظام فى أرض لا هى غارقة ولا هى
مشحطة ، اليوم كالامس ، والغد كاليوم - مغفل فؤاد !
هذه هى الطمأنينة ، سر السعادة ، ينبغى أن يقبل لها
اليد ظهر البطن ، ولكنه خلا بها ، خانها وانهار من وراء
ظهرها بغير سابق انذار ، هل نسى أن لهما بنتا وطفلا
رضيعا ؟

لم تكذ فتحية تدخل فرع شركة الطيران فى المدينة
حتى أحاط بها رجال تعرف أكثرهم ، سلموا عليها جميعا
باعزاز وعطف شديد ، هم فى سباق بينهم ، من منهم
يقدم لها المقعد ومن منهم يطلب لها القهوة ، بلعت
ريقها حبة ، وحين تكلموا لم يدر الحديث كما فى البيت
عن اليوم أو الغد ، بل عن الأمس ، وقضت كلمة «كان»
بجلالة قدرها الى أوائل الجمل ، وتلاحقت على أذنها
عبارات كثيرة لا يمنع تشابهها من تكرارها :

— كان فؤاد والله رجلا طيبا لا يستحق ماجرى

له !

— كان مع ذلك كثير الضحك ، يحب المزاج ، فماذا

جرى له ؟ كنا جميعا لا نتصور أن نسمع مثل هذا الخبر ،
شدة وتفوت •

— كان يرهق نفسه بالعمل وكنا ننصحه دائما أن
يرفق بأعصابه •

— كان مع ذلك كثير الضحك ، يحب المزاح ، فماذا
جرى له ؟

أحست فتحية أنها ليست زوجة بل أرملة تتلقى
العزاء فرفعت رأسها وقالت برفق لا يخلو من حزم :

— ممكن أقابل البيك الرئيس الآن أم هو مشغول ؟
أجابها أقرب الرجال إليها :

— حتى لو كان غارقا في أذنيه فانه سيفضي نفسه
في استقبالك •

أوصلوها لباب المكتب ، وأسمعوها وراء ظهرها
همس بعضهم لبعض :

— امرأة مسكينة • • كان الله في عونها •

جلست فتحية أمام الرئيس والحمالة معلقة في
كتفها لم تنزعها وان جذبت الحقيبة ووضعتها في حجرها ،
سيكون المنديل بذلك أقرب متناولا ، فكت أزرار معطفها

فانكشف ثوبها ، انها جاءت لغرضين : الأول : أن يسمح الرئيس بأن تكون الاجازة المرضية مهما طالّت بمرتبة كامل ، قد يكون الحل أن يتكّرم ويفمض عينيه قليلا ، ويقرر أن المرض حدث أثناء العمل وبسبب العمل . والغرض الثانى : أن يعمل على نقل زوجها الى مستشفى خاص ، من مخزن المتاع المهشم الى دار علاج تتكفل الشركة بنفقاتها .

★★★

سارع الرئيس ووعدها بأن يصرف لها مرتبا كاملا مدى ثلاثة أشهر ، ثم بعدها ربنا كريم ، ولماذا نستعجل البلاء قبل وقوعه ؟ أما النقل لمستشفى خاص فمتوقف على تقرير طبي من ادارة المستشفى الحكومى تقرر فيه أن المريض له مصلحة ولا ضرر عليه من نقله منها . أدركت أن نقيبها جاء على شونه .

لما رآها تقوم على وجهها علامات الضيق قال لها :

— اجلسى ، دعينى أفكر قليلا .

أحنى رأسه وأخذ يخبط على المكتب بطرف قلمه ، ثم نظر اليها من تحت تحت وقال :

— هل لديك شهادة مدرسية ؟

أدهشها هذا السؤال فلم تملك الا أن أجابت :
— لماذا تسأل ؟

ثم أسرعتم تتم كلامها بلهفة :

— نعم ، لدى شهادة •

— ماهي ؟

— شهادة معهد التدبير المنزلى •

أحست أنه أصيب بخيبة أمل وعاد بقلم يدق على
المكتب ، ثم قال :

— شوفى ياستى ، اننى خاضع لتعليمات ، انما أنا
قولى مثل والدك أو مثل أخيك الأكبر ، يهمنى أمرك ،
فؤاد كان عزيزا على ، اننى أحب أن نحتاط للمستقبل ،
وأرى أنك قد تصبحين فى موقف لا يبد لك فيه من
الاعتماد على نفسك وحدك ، لذلك فكرت اذا كانت
لديك شهادة أن أبحث لك عن وظيفة فى الشركة ، وربنا
يساعد ، لكن حكاية التدبير المنزلى هذه صعبة حبتين ،
نحن فى حاجة مثلا الى سكرتيرة تعرف الآلة الكاتبة ،
عاملة تليفون لاتليق بك •
أجابته بحسرة :

— حين يميل البخت يميل مرة واحدة ، على كل حال أنا شاكرة .

وهمت تقوم ولكنه أجلسها من جديد وقال :

— سأقترح تعيينك مشرفة على المواد الغذائية التي تشتريها الشركة لاعداد وجبات الأكل فى طائراتها لزبائنها ، فما قولك ؟ هذه الوظيفة سنخلقها لك خلقا ، اكراما لك ، لأنها ليست فى ميزانية الشركة ، تبقيين بعقد مؤقت يتجدد مادام زوجك فى المستشفى ، فاذا خرج وبحثنا له عن عمل أقل مشقة تكون حاجتك أنت للموظيفة قد انقطعت ، ونبقى فى الداخل حبايب وفى الخارج حبايب ، فهل تقبلين ؟ وهل تسمح ظروفك بالعمل ؟

فاجأها العرض ودار ذهنها دورة سريعة جمعت كل دوافع الرفض أو القبول وهمت تقول له : «دعنى أفكر يومين» ولكنها انتهت الى أن التردد حماقة كبرى ، ليست هى التى تتهيب الدخول من باب ينفتح أمامها على غير انتظار ، وان كان من ورائه المجهول فأجابته :

— لم يكن فى حسابانى قط أن يحوجنى الزمان للعمل ، أنا بفضل فؤاد ست بيت ، وقتى كله له

ولأولادى ، انه كان يحملنى على كفه ويقضى لى كل رغباتى ، ولكنى أدركت الآن من كلامك أنه ينبغي لى أن أفيق لنفسى وأحتاط للمستقبل ، فأنا أشكرك من كل قلبى وليكن من نصيبك دعاء أمه الصالحة ودعائى ، سأقبل الوظيفة ، وسأبذل كل جهدى للفوز برضائك ، بحيث أبيض وجهك ، ولا تندم على تعيينى .

قال لها : اننى سأقترح وأجرى وراء الاقتراح ، أما القرار فيصدره المدير العام للشركة ، أظن أننى أستطيع اقناعه ، ولكن زيادة الخير خيران . فهل تعرفين له واسطة ؟ ولكن لماذا ؟ اذهبى اليه بنفسك ، فحين يراك ويسمع قصتك من فمك لن يابى قبول تعيينك بهذا العقد المؤقت ، انه رجل كريم وابن حلال ، والأنسب أيضا أن تقدمى له شهادة بأن فؤاد سيبقى تحت العلاج ستة أشهر على الأقل .

خرجت ، وحين جاوزت الباب فكرت لأول مرة فى حمايتها فأطبقت فكيها وهمست لنفسها :

— سأعرف كيف انتصر عليها . على كل حال هى زائرة مؤقتة ، هذه الكركوبة الحمقاء أم اللسان البارع فى التنبيط الكتيمى والتلقيح من بعيد لبعيد . مسيرها أن تتركنا فى حالنا وتغور وتذهب للاقامة مع ابنتها .

★ ★ ★

بقيت آمال فى البيت ، قالوا لها انها اذا صحبتهم
فلن يبقى أحد يأخذ باله من ميمى ، ها قد جاء دورها
وأصبح لهم اعتماد عليها فهي لم تعد صغيرة ، لا يعلمون
أن وقع الكذب والاحتياال على قلبها أشد مرارة واثارة
للسخط من الحقيقة البشعة ، انهم لا يريدون لها أن ترى
أباها فى المستشفى ، هي تعلم أنهم يخشون أن تبكى
وتحدث ضجة وثلجة ، وهم ينتزعون يدها من يده ،
وهيها أن يصدقوها اذا أقسمت لهم بأنها ستظل صامئة
عاقلة مؤدبة ، هي لا تريد الا أن ترى أباها ، لن تكلمه ،
اللهم الا اذا بدأ هو أولا فتعرف نوع كلامه وتتدبر
جوابها . انها واثقة أنه لن يهيج من كلامها كما هاج فى
البيت آخر يوم .

وعلى باب المستشفى وحسب الموعد تقابلت فتحية
وحماتها مع بقية الأسرة ، أخ شقيق لفؤاد وأخوان لأب
وأخت لأم ، ثم عدد غير قليل من زملائه فى الشركة ،
فى أيديهم جميعا لفائف الهدايا ، بعضهم بادی
الشجاعة ، وبعضهم يكتم الخوف ويتمنى أن تنتهى الزيارة
بسلام ، وبعضهم يصبر نفسه بأن هذه الزيارة الأولى
تمرين محمود وان كان ثقيلا عليهم فى المستقبل .

ودهشت فتحية حين وجدت بين الجميع عبد الرحيم ابن خالة ابن عمها ، انها لم تره منذ زمن طسويل ، فكيف سمع وما الذى أتى به ؟! استأذنت فتحية بعد الزيارة من الجميع وقالت ان لديها مسألة تريد أن تتحدث فيها مع مدير المستشفى ، فهموا أن همها يفوق همهم وأن المعبء كله واقع عليها وأن الناس أسرار . دخلت على المدير بعد أن مكثت وقتا طويلا فى حجرة الانتظار ، فركبتها النرفزة ولكنها تماكنت أعصابها وقالت له بهدوء يناسب المقام :

— هذا هو أول معسروف أَلتمسه منك ، أريد أن تتكرم وتعطينى شهادة بأن أمام زوجى علاجا لا يقل عن ستة أشهر .

أجابها وهو يقلب بعض الأوراق أن العادة لم تجر بذلك ، وأنه من المتعذر الحكم على مدة العلاج .
أسرعت تقول :

— وما الضرر ؟ وماذا تخسر ؟ شهادة لا طلعت ولا نزلت ، أنت لست مرتبطا بها ، اذا شفى فؤاد قبل الموعد فلن نجبرك أن تبقى عنده ، انما هذه الشهادة تلزمنى أشد اللزوم وتتوقف عليها أشياء كثيرة .

رفع اليها بصره وتأملها ، تحولت نظراتها الثابتة
الى غيام ، فأحنى رأسه وقال لها :
— حاضر يا ستى ، لا أحب اغضابك •

لما خرجت من عنده لامت نفسها على حديثها واعتزمت
على أن لا تكرر هذه الهفوة • هذه الحدة التى جعلتها
تنسى أن تطلب الشهادة التى تنصح بنقل فؤاد لمستشفى
خاص ، ستطلبها منه فى الزيارة القادمة •

ودهشت فتحية مرة أخرى بسبب عبد الرحيم حين
وجدته ينتظرها على باب المستشفى ، وسار بجانبها ،
وكان هو اليا دىء بالكلام :

— لم أرك منذ دهور يا فتحية •

— أنت لاتسأل عنا •

— بل أنت التى تكبرت علينا لأننا فقراء •

— هذه أوهام من عقلك الوسخ ، ربنا يحمينا من
شر أقوال الناس أمثالك •

— على العموم أنت فى حاجة لمن يساعدك الآن ، أنا
تحت أمرك وفى أى ساعة تطلبينى تجدينى •

قالت فى سرها : ما أكثر الوعود هذه الأيام وما أقل
الوفاء !

— أما تزال فى وزارة الأوقاف ؟

— كما أنا •

دب فى قلبها احتقار له ، انه لم يتغير ، هو دائما
له عقلية الخادم ونفسيته ، يحب التمسك بأطراف
الموائد • وان أكل لقمته حامدا شاكرا ، ذهنه بلا أصابع ،
ويده غبية ، ولسانه ملجم ، لو أوقفته وراء الستار لما
بصت عينه من خرم ، وأحدث آرائه هى آخر ماسمعه ،
لا عجب أن عوضه المنان بصحة جسمانية مثل الحديد ،
كانت تلعب معه وهما طفلان ، فكانت هى التى تركبه
وتؤذيه وتضربه فلم يكن يغضب بل ينظر اليها باعجاب ،
رضاؤه عن نفسه وقف على رضائها هى عليه ، ثم لما
كبيرا فرقت الحياة بينهما وان كان يزورها أحيانا مع
الأعياد ، هذا الموظف الصغير فى وزارة الأوقاف يعد
نفسه من دلاديل الست ومحاسيبها • قالت فتحية فى
سرها : ولم لا ؟ ان الله أرسله لى عند الحاجة ، سيكفينى
مؤونة مشاوير كثيرة ثقيلة • وابتسمت فى وجهه •
وخيل لهما لحظة أن الزمن تراجع للوراء الى حوش كبير

فى منزل قديم تلاحق فيه صبية بضفيرتين صبيا
بجلابية •

لم تقترب مدة المقء المؤقت من منتصفها حتى كانت
فتحية قد أصبحت مسمار المكتب • اعتادت أول الأمر أن
تصل كل صباح فى موعدها ، منهكة لم تكمل زينتها ،
كان الله فى عون ست مكافحة مثلها ، اذا كان اليوم هو
صبيحة يوم الزيارة الأسبوعية بدأت أولا بإذاعة نشرة
أخبار صحة فؤاد ، هذه المرة حالته لم تتغير ، هذه المرة
هو أحسن ، هذه المرة حالته تأخرت قليلا ، لامعنى لهذا
التناقض الا أن الحالة مهيبة ، ولعل هذه النشرة هى التى
أغنت الزملاء - زملاءها هى الآن ! - عن الذهاب
لزيارته • فتحية تقول لهم بالفم المليان انهم قاموا
بواجبهم وزيادة ، الدورة والمتمة على حضرات الاخوة
والأقارب ، هل يتصور الزملاء أنها تذهب فلا تجد أحدا
منهم ، ولا صريخ ابن يومين ، أين الأخ الشقيق ؟ أين
الاخوة لأب ، أين الأخت لأم ؟ كل منهم فص ملح ذاب ،
أما الأم فتأتى مرة وتمرض هى مرة ، وحين تقابلها
لا تكلمها • لماذا ؟ هل قتلت لها قتيلا ؟ ثم لا تكاد فتحية
تفرغ من هذا الكلام وتبدأ العمل حتى يدب فيها وفى

حجرتها كلها وقدة شديدة ، أوامر وتليفونات ودخول وخروج . فهمت الشغل بسرعة وأتقنته ، أصبحت معروفة فى الشركة كلها وفى عمارة المكتب ، يعرفها البواب وعامل المصعد ، حتى الخواجة الساكن فى الدور الأعلى سأل عنها حين رآها فى المصعد ذات يوم تحمل فى يد ملفا وفى يد رغيف توست وأقصة موز ، قال له البواب : «واحدة ست مسكينة تجرى على عيالها ، برافو عليها !» . لم تعد فتحية تبالى بعبارة «ست مسكينة» التى لاحقتها منذ أن دخلت الشركة ، هى لاتضيق ولا تسر بها ، بل هى تضعها فى جيبها مفتاحا صنعه لها الآخرون قبل أن تصنعه هى لنفسها تستعين به على فتح الأبواب التى لاتستجيب للطرق الأول . هذه العبارة هى التى أعانتها على تحسين علاقتها مع أغلب موردي الشركة ، لم يتقدم أحد منهم ضدها بشكوى من مجهول . لم يكن أقل تفع العمل لها أنها فقدت بدانتها ، وأصبحت تلبس المشد بسهولة ، كانت فى أول الأمر ست بيت ثم موظفة ، العمل فى المكتب متأثر بحالتها فى البيت ، فأصبحت موظفة ثم ست بيت ، حالتها فى البيت متأثرة بظروف العمل فى المكتب ، وقليلًا قليلًا بدأت عنايتها بزينتها تزداد ، وحلت لها الدنيا وشمرت بشخصيتها

فى العمل تثبت وتسيطر ، سعادة كبيرة تخفيها فى
قرارة نفسها ، بل بدأت من فرط الثقة تتدلع وتأتى
للمكتب متأخرة ، ولكن الجميع وهم يلحظون عنايتها
بأناقته يشهدون أنها تلتزم الجد ، وأن سمعتها نقية .
لقد عرفت كيف تحتفظ بكرامتها وتعامل الزملاء معاملة
الند للنند لا شأن فيها للجنس ، انها ليست مغفلة ، قد
انتبهت الى تيارات خفية تحت السطح ومبادئ مغالطات
متسترة ، ولكنها عرفت كيف تقضى على هذا العبث
كله ، انها وقد رتبت فى الظل الاحتياطى المجهول الذى
لا يخون ولا يفضفض ليست فى عجلة من أمرها ، هي
عاقلة متحكمة فى أعصابها لن تخطو الخطوة الا اذا
وجدت نفسها فى آخر الطريق المسدود ، وستكون
خطواتها بعدها قليلة مرسومة وعند أشد الحاجة ، فهي
لاتريد اذا سنحت لها الفرصة فى العللى أن تبدو فى
صورة امرأة متهاكة تنهدم عند اللمسة الأولى ، لأنها
تحب اذا آن الأوان أن تكون هي التى تجود وهي التى
تقود .



ظننت فتحية بعد أن سالمته الأيام أن نشرة الأخبار
لم تتغير كثيرا وأن العقد سيتجدد بسهولة ، فاذا هي

تفاجأ في آخر زيارة قبل نهاية المدة بطلب من مدير المستشفى ، ولما دخلت عليه أخبرها كأنه يزف إليها بشرى أن فؤاد دخل في فترة هدوء من المتوقع أن تكون طويلة ، واحتمالات النكسة بعيدة وأنه بشيء من المسايسة في البيت لاسبوع أو أسبوعين يستطيع أن يعود الى عمله .

اغبر وجهها ولكنها تماكنت نفسها وابتسمت وكادت تخطف يده لتقبلها ثم وقفت بين يديه مترددة معتذرة .
ان كان في هذه الدنيا كلها من يفهمها فلن يكون الا هو .
وقالت بسرعة كأنها أعدت الجواب منذ زمن طويل :

— انت سعادتك عارف انى موظفة ، وقد قررت الشركة أن ترسلنى فى جولة فى أوروبا للإشراف على جميع موردي طائراتها فى المطارات الأجنبية ، وسأسافر فى الأسبوع القادم ، هذه هى فرصة العمر ، أعددت جواز السفر وكل التأشيرات ان أردت أحضرها لك ، فاعمل لى معروفا وأجل اخراج فؤاد شهرا واحدا ، ثم لاتنسى أننى أعيشن وحدى فى البيت ، وأحب أن أكون مطمئنة كل الاطمئنان أن لا يحدث لى أى خطر اذا خرج قبل الأوان وأصابته فى منتصف ليل نوبة من الهياج .

فأنا أعمل ، وأنا وحدانية ، وامرأة جار عليها
الزمان •

نظر اليها مليا ، وذكر مقابلتها الأولى فاستدار
وقال لها وهو يخرج من باب جانبي :
... حاضر ياستى فهمت •

★★★

ليست هذه أول كذبة في الحياة تصبح حقيقة
في اليوم الذي تم فيه تجديد العقد قدمت فتحية
الاقتراح وجرت ورائه ، وفي أقل من أسبوع صدرت
الموافقة على جولتها في أوروبا ، ونشرت الشركة في
الصحف بين اعلاناتها صورة لاحدى طائراتها ، وعلى
السلم فتحية في تاير أسود كلاسيكى تلوح بيدها
وتبتسم لمودعين لا يظهرون في الصورة • وكانت
الرحلة الى أوروبا أول خطوة للعلالى ، وأيضا أول
ثمرة لهذا العلالى • اذ كان مدير الشركة مسافرا
بالطائرة ذاتها •

الفراش الشاغر

الوالج

الوالج فى شارع الريحان من ناحية ميدان الامامين
تمر يده الشمال بعد خطوات بدكان صغيرة قد لاتلحظه
عيناه وهو ماض فى سبيله أمام صف من دكاكين فقيرة
متلاصقة متشابهة تحاذى الرصيف المقشور الضيق فى
استقامته ودورانه . فهذا الدكان مضيع هو واخوته
فى عتمة غلالة من هواء رث ، نسجها عنكبوت مات
فى وقت غابر فعشش فيها من بعده الأمن والرزق
والنعاس ، والزمن المشلول . والزنبرك الذى يحرك
الدمى من ورائها قد هرم . فالرؤوس معنية على
الصدور ، والأجفان كالسقاطة تشد بحبل ، ثم تهوى
والأيدي مترنحة ، وهى تنتقل بين تسلم الملاليم
ومناولة الزبائن ، ونش الذباب عن الشرب من نر
الشفاه ورشح الجفون ، ومن رقراق لزج جميل لونه
ولعانه يسيل من صماخ الأذن .

أما اذا رفع المار بهذا الدكان بصره قليلا
فستستوقفه لافتة ينقبض لها قلبه ويشيح عنها بوجهه
ويسرع - وقد يتعثر - فى مشيته وهو حائر يسأل :
ما الذى حشر هذه المهنة اللعينة بين دكاكين تجارة
مباركة تجد مديحها فى الكتاب والحديث ولاتأنف من
مصافحة أصحابها ومؤاكلتهم ؟ انها فى هذه الجيرة
غلط : دمل فى خد أسيل ، مومس بين حرائر ، مجذوم
بين حريم أمير شرقى يسكر أيضا على اللبن الحليب من
يد قواد شريف .

من حسن الحظ أن انقباض قلبه سينخف منه
اعجابه بنفسه حين يحسب أنه أول من يكتشف بذكائه
أن اللافتة تدل على أنها كانت معلقة من قبل فوق دكان
أفسح عرضا ، فهو قد لحظ أنها بسطت طرفا من
جناحيها على الدكان المجاور ناحية اليمين والدكان
المجاور ناحية اليسار ، وهذا تواضع منها لأن ظلها يعم
الأرض كلها ، واللافتة مائلة قليلا الى الأمام ، مائلة
كثيرا الى جنب - انها توشك أن تهوى فى أية لحظة ، ومع
ذلك فهي خالدة .

المار الأيمن يقال بلدى ، فى مدخل دكانه عارضة
من خشب أغبر محبب عليها أنجر باذنجان مخلل - كل

بأذنجانة أجهضت بذر أمعائها ، متفسخة بالية اهترأ
لحمها . من أجل ذلك تتحلب لها أفواه الزبائن ، ان لهم
صلة قرابة بالرخم والضبع .

الجمار الأيسر صانع حقائب يعمل في نفاية الجزار ،
ظهر هذه الحقيبة كان ظهر بقرة ، وبطن هذه الأخرى
كان بطن ماعز . حقائب للفراق والهجرة ستتوسد
أرصفة المحطات ، وأرفف القطارات ، وتجوّب الأرض
كالأرواح الهائمة .

ومرت بالطريق عربة كارو ، تشع بصيصا من
رائحة جمار ذكر النخيل . هي كقفص دجاج بلا سقف ،
أو سياج تكتظ داخله نسوة في ملابس سود ، تحت
كل واحدة منهن بيضة ، الويل لهن ان لم تفقس ، فهن
في سباق مع حداة لصة لا ينقطع نهما ولا دأبها على
الترصد لفراريجهن واختطافها ، أما الجمار فمحروم
وصاحبه مقطوع الأنفاس ومع ذلك لا تشبع فراغة
عينه .

وتلفت عابر السبيل للافقة مرة أخرى قبل أن
تغيب عن نظره مكتوب عليها بالخط الثلث وبأحرف
بيض عريضة مشققة كظهر السلحفاة : «حانوتى عموم
قسم الامامين» .

وترك صبي المعلم مدخل الدكان واتجه الى قاعة ،
انه كهف مظلم تختنق فيه نظرات المارة ، ثم مال بث أن
عاد حاملا على كتفه نعشا جديدا مشقوقا من صندوق
وغطاء ، وعلقه بمسمار على درفة الدكان ، ثم جلس
وشرع يسن أظافره على جلبابه المقلّم .



تسكن قبالة الدكان منذ عهد بعيد أسرة قليلة
العدد : أب وأم وولد واحد ، أول العنقود كان آخره ،
لا يعرف الجيران عنها شيئا كثيرا ، وأدركوا أنها أسرة
تريد أن تعيش وراء ستر ، وفي اعتقادهم أن لا طلب
للمستر الا لاختفاء كمال في السعادة أو في الشقاء ،
كلاهما وصمة دامغة يضاجعها الحياء . وقال البعض ان
وراء الستر سعادة ، يحس بها ثم ترى رأى العين حين
تفيض فى المواسم والأعياد ، فنور الفرح الذى يتدفق
حينئذ من نوافذهم ليس كمثله نور فى الحى كله . له
جلجلة الضحك . وقال البعض ان وراء الستر شقاء ،
ففى كل شهر مرة أو مرتين تقف أمام الباب سيارة
مرهقة الروح والجسد . كحبل اختنق داخلها جنينها ،
غيرها يلد الحياة أما هى فتلد الموت ، أو ينزل من
السيارة حارس ضخم يسيطر على رجل طويل نحيل

ممتقع الوجه زائغ البصر هائش الشعر دائم التربص،
يمكر للحظة يسترد فيها حرите لينطلق ، يبحث عن
عدو لئيم حطم روحه ووعيه ومنطقه وأبقى له لفة
كمصاصة القصب هي التي يلوكها في فمه لتفصح
عنه ، والمصيبة أنه لايعرف من هو هذا العدو ، يتشبث
بباب السيارة وباب البيت والحارس يدفعه ويعدل
بالكف وجهه الى الأمام لئلا تنخلع رقبته ، ولكي يصون
المارة من نظرات كطلقات الرصاص وسباب تخجل منه
أحط المواخير .

وعند الضجة تنطبق نوافذ البيت كلها في لحظة
واحدة كأنما لم تجذبها يد ، بل تحركت من تلقاء
ذاتها ، وبعد ساعة أو ساعتين ينزل الحارس يمضغ^ه
ويمسح شاربه وثلوذ بيده الأخرى يد رخصة رفيقة
لطفل طويل نحيل وديع ، اذا احتل مقعده في السيارة
أخذ يتوجع بخفوت ، ويئن أنينا متقطعا مكتوما كأنه
عائد من سفر طويل على ظهر دابة عرجاء فوجد فراشه
المعهد ينتظره .

ويقول أنصار مذهب الشسقام في زهو مكتشف
السر وكاسب الرهان انه نجم الأمرة ورجلها الفالح
وانه ذو ثراء وفير ، هو الذي يمنع أهل البيت من

الدعاء عليه بالموت ، ففي شريعتنا أن القاتل لا يرث
القتيل ولو قتله رحمة به . ويحدث مرارا بعد حركة
السيارة أن يخرج صبي القهوة وفي يده جردل ممتلئ
لتم عينه بماء الشيشة والمبوزة ويقف على الرصيف
وينفضه بجذبة عنيفة فيسقط رشاشه كأنه رعشة
لذيدة في جلد الأرض ، وتفوح رائحة حثالة النيكوتين
فتتخدر عليها وترتاح أعصاب المارة من بشر وخيل
بغال وحمير .

★★★

المسألة أبسط من ذلك ، فليس الستار مسدولا
لاخفاء سعادة أو شقاء بل لسبب آخر لم تدركه براعة
ظنون أصحاب المذاهب ، لأنه الأقرب للعقل والالصق
بطبيعة الانسان ، والسحر في الوهم لا في الحقيقة ،
هذا يبرق لتعشى تلك ، ان الأسرة تقترب عملا
لا حاجة لغير مثله الى ستار اذا أريد لطقوسه ألا تفسد
فيبطل مفعوله ، هو نفص اليدين من دنيا الناس ، هي
عندهم عش زناير ، لا أمن الا في تجاهلها ، وقنبلة
زمنية لا بأس أن تطوف بها ولكن حذار من لمسها ، وزق
مختوم له رائحة لذيدة مسكرة ، فاذا فضضته استحال
هو وعقلك الى أبخرة هوج متطايرة ، العيش عندهم ليس

خطا عموديا يرتكز جديده على قديمه . ويتسع معه الأفق كلما علا ، ولا قسوس دوران فلك : شروق ثم سمت فأنحدار فمغيب ، بل هو خط أفقى أبيض مستقيم ترسمه نقط سود متشابهة ضاع لونها من شدة تلاحمها ، حتى طعامهم تمضغه لهم قبلهم المفارم ويد الهاون ، يأكلون اللحم والخضروات كلها عجينة واحدة مهروسة ، ويجدون لذة مذاقها فى ضياع طعم أجزاءها ، فالشيوع عندهم نجاة من مقابلة وجهها لوجه لنعمة مخلوعة العذار تقتضى منهم أن يخلعوا لها سجدا على الأرض ، ولا يرفعوا عنها جباههم أبدا . انه وضع متعب والتعب أوسع أبواب الكفر ، فهم فى تنكرهم للنعمة أشد من غيرهم معرفة بقدرها وامتنانها لها ، كفوا عن الاعطاء خشية نوال عوض يفرقهم بجسديه أو يمتصهم بفيضائه ، فأمنوا التفجع وضرب الكف بالكف لدماة العقوق من الآخرين ، والتأوه لحسن أرواحهم هم أنفسهم وهى تتهيب وهم خور يرقبها ويسمرها كما يفعل الثعبان بالعصفور ، فانك قادر على أن تضمن برقيبتك بقاءك دواما شحيحا جبانا ولكن لا تستطيع أن تضمن ولو بدائق أن تظل دائما فى جميع الأحوال كريما شجاعا ، وان خلوا الى نفوسهم سقطت

عن أيامهم أسماؤها وأصبح الانتباه لفروقها مرتبطا بدوران ظل أو ترديد صيحات الطيور المهاجرة ، فمن نفض يديه من دنيا الناس تزداد صلته بالطبيعة ، واختلطت الأعمار باختلاط الأيام ، فالزوج ينادى امرأته بيا أمى وهى تناديه بيا أبتى ويناديان ابنيهما الوحيد بيا أخانا ، والابن ينادى أمه بيا عروستى * أما مناداته لأبيه فقد نسي لفظها لأنه أقلع عن مناداته منذ أن بلغ الخامسة من عمره وأصبح لا يتحدث إليه أو عنه فى حضرته ، فاذا ولى لا يشير إليه الا بضمير الغائب ، بكلمة «هو» وحدها ، وكان يحدث مرارا وهما يتدبران وينصرف أحدهما عن الآخر أن يلتفت الأب وراءه فيجد ابنه ملتفتا إليه ، فى اللحظة ذاتها ، يحس الابن أنه يتلقى نظرة متجسدة متوجسة ، ويحس الأب أنه يتلقى نظرة تبحث عن مشرط لامع مخبأ فى قبضة اليد ، وتنقلب النظرات المتبادلة الى ابتسامات الخجل والاعتذار ممن ينكشف لعبه ، ثم تتحول الابتسامات مرة أخرى الى نظرات تنطق بالفم والمحبة والاعزاز * يحدث هذا كله فى ومضة البرق مما يدل على أن الأسرة متماسكة ولها علامة مميزة هى أن أيدي

أفرادها كلهم رخصة ناعمة مهذبة من أثر كفهم جميعا
عن الاعطاء .



عيش بلا برنامج ، لذلك لم يبد أبواه دهشة أو
اعتراضا أو أسفا حين عدل الابن عن الدراسة فى كلية
التجارة بعد أن أمضى بها سنة أورثته - وكان خالى
البال بريئا من الاحن - كرها ممضا للمال والجمع
والطرح ، أصبح اذا تأفف بصق برقم ٠٠ ولا حين عدل
عن دراسة الآداب بعد أن كرس لها سنة أخرى اذ وجد
أن عيار عقله ولسانه قد انفلت وأخذ يشقشق بشرثرة
فارغة ، ثم بقى فى الدار عاطلا سنة قلبت حياته رأسا
على عقب ، ثم نفض يديه وترك سفينته تلقى مراسيها
بكلية الحقوق وتوالى فجاحه وان جاء ترتيبه فى الذيل
حتى لم يبق على تخرجه الا سنة واحدة ، استقر بها
وهدأت نفسه فقد أراحه وأعجبه أن القانون نحا برقبته
من شريعة الكون وربكتها وتناقضها وتسميتها للظلم أنه
فى بعض الأحيان عدل ، ليس عندها حساب ختامى ،
وحتى لو كان فبعد خراب العالم كله ، واصطنع القانون
لنفسه منطقا مستقلا جميلا على الورق ، بارع التقسيم
والتسلسل عاجل النفاذ ، كأنه هدم بناء الحياة واتخذ من

أنقاضها قوالب مرقومة أقام عليها صرحه : القاضى لا يحكم بعلمه حاشا وكلا ، بل من الورق ، فالورق أبين من الحقيقة ، الصدق عنده كالكذب مرفوض الا اذا دعمه دليل لم يجد من يكشف زيفه ، الرذيلة عنده معددة لها مقام ، والفضيلة مبهمة ليس لها حساب ، يقضى بعقاب الزوج الخائن ولا يقضى بمكافأة الزوج الذى يظل مخلصا بعد شهر العسل .

ومع ذلك ففضيلة القانون أنه رحم الانسانية بتحويل عالم الروح الى جسد عقلى منطقى تزول فيه الفروق بين العالم والجاهل والمتطوع والمعدور ، انه حذف القدر من قاموس الانسان ، ولما حذف كلمة القدر حذف كلمة الرحمة أيضا ، لا بأس ، فهذا هو التسلسل المنطقى الذى أخذ به القانون نفسه ، وان منطقا مسلسلا أفضل - مهما كثرت مظالمه - من شريعة عادلة بلا منطق مفهوم . وشيئا فشيئا أخذ صاحبنا يفقد الاحساس بالفروق بين الفضيلة والرذيلة لاختلاف منطق شريعة الكون عن منطق القانون وأصبح كهذا الشحاذ الذى يتناول ولا يعطى ، يبتعد عن زحمة الحياة ليرقد على رصيف أمام مسجد ويعرى قلبه ثم يهبه لضوء

الشمس وأسراب القمل فيجد في اختلاط الديبين
لذة تكن لها النفس ألما وتهتز طربا في وقت واحد .

أصبح الفتى قعيد الدار بين الآداب والحقوق فكان
من الطبيعى أن لا شيء يشفيه من تعطله الا عمل واحد
هو من بين الأعمال جميعها أبسطها وأسهلها وأنبلها
وأصدقها وأقربها للعقل : أى أن يعمل زوجا ، هو بكر
ومع ذلك أصر على ألا يتزوج الا من ثيب . وتولى هو
بنفسه وبغير مداخله من أبويه اختيار المصنع الذى
سيهبه العمل فيتلقفه منه . لم يراجع قائمة الأقارب
والجيران والمعارف بل مديده وهو جالس فى بيته
ووضعها كقسييس يمسح امبراطورا على رأس فتاة فقيرة
وقال كلمة واحدة هى «هذه» شأن الأطفال فى متاجر
اللعب ، حينئذ غمرت روحه سعادة لا حد لها اذ أحس
أنه ارتد الى الطبيعة الأم وداس بقدميه فى طريقه اليها
على كل التقاليد التى اخترعها الانسان للظفر بزوجة :
مطاردة واقتناص الوحش للوحش ثم خطف ثم شراء ثم
اثبات بطولة بعد نزال ثم غزل وسهر وتنهدات ، وكان
يضحك فى سره أحيانا لأنه يظن بغير علم الى أن سر
شقاء المرأة فى عصرنا هذا أنها ترث كل جداتها وتريد
من زوجها أن يلجأ فى الظفر بها الى كل هذه الوسائل

مجتمعة ، وان زعمت أن الفزل وحده يكفى لأنها
متحضرة وهذا كذب - فما له هو ووجع الدماغ ؟

تأتى هذه الفتاة الفقيرة لزيارتهم فى صحبة أمها
وأبيها مستأجر أطيان نجم العائلة كلما حل موعده
القسط الشتوى أو الصيفى - لاتزال تلبس اللبس
المصبوغ المخرخش ، وخفا لا حذاء - لاتكشف عن وجهها
الا بمقدار ، منهدة فى قبضة الحياء ، اذا وجه لها أحد
كلاما غاصت فى الارض ، ولكنه جمع كعبها الوردى
الى الفتات الذى يراه من وجهها وحكم بأنها هى التى
تصلح له : فتاة خام ساذجة ، عيون سيالة لاتقوى على
توجيه النظر وجبهة لاتبرق بفكرة ، وجسد فى حالة
شيوع تاهت فيه مفاتن الأعضاء ، وشعر ملبد يرى من
الآن مقدار سحره اذا غسلته وتهدل ضفائر مبتلة على
جبينها وخديها ، انه سيعصره لها بأصابعه وشفتيه ويجد
لسانه فى طعم رائحة الصابون الذ خمر !

هو يعلم أنها تزوجت من أحد أقربائها فى البلد
وكان لغريم له ثأر عنده فلم يشأ له غله وانتقامه ان
يتركه يتمتع بعروسه ، وترصد له وهو عائد من الحقل
وأفرغ فيه رصاص بندقية مخروطة شغل يد - وحمل
لها جثة ممزقة وأخذت تمسح جراحه بمنديل تلوث

بالدم لثاني مرة في أسبوع واحد * فهي اذن في نظر
الفتى عز الطلب ، سهلة ، تولى غيره فك عقدتها ودكها ،
كالطاجن يشتريه مستويا ناعما جاهزا ويترك لغيره
تلويث أصابعه وخدشها وهو يطليه له بالزيت ، بل ان
هذه الفتاة تفضل هذا الطاجن لأنها لاتزال ملطخة بالدم
وان يك جديده من مزيف زوجها القثيل *

وراق المفتي ، لكي تتم له منعة نزوته ، أن يؤثث
حجرة العرس التي أفرد لها لنفسه في دارهم على ذوق
فلاحة من طبقة زوجته : حصيرة ترص عند حافتها
الشبابيب والقباقيب وسرير من الحديد له ملة من خشب
وتاموسية من حرير وردي وصندوق للملابس مزين
بالأحمر والأخضر وطشت ودست للفصل * فلما أكمل
الجهاز اذا بها تقرب منها الى أذن أمها وتهمس لها بشيء
ثم أدارت وجهها للجدار من شدة الخجل وأبقت يدها في
يد أمها تشدها لتمنعها من الكلام في حضرتها * فلما
انقرد الفتى بحمساته أخبرته أن ابنتها همست لها :
مادمت سأتزوج في العاصمة ومن رجل قد الدنيا فأحب
على الأقل أن تكون ملة السرير من السلك الهزاز لا من
الخشب *

على هذه الملة السلك لقي الفتى صدمة حياته ،

زلزلت كيانه فانهدمت أوهامه وبقي هو عاريا وسط
أنقاضها يلحق حيرته ، ففي الليلة الأولى ذاتها انقلبت
هذه الفتاة الخام الساذجة الى وحش ضار مفترس ،
العيون المسبلة أبرقت كعيون الصقر المتحفز ، تنبعث
منها في جوف الليل نظرة متقدة كأنها وميض سيف أو
ذوائب لهيب ، لو مرت بعود ثقب لأشعلته ، نار
لاتطفئها مياه الأنهار المقدسة كلها ، نظرة تلحس جسده
كالمبرد ، والجبين الذي لا يلمع بفكرة أصبح مسطورا
عليه - بدل القدر - أمر أداء صادر من محكمة مستعجلة
لايقبل التأجيل أو الاستئناف ، الشفاء الرقيقة المطبقة
انفجرت متورمة عن رعشة ثلث ، الفم يتلمظ
ولا يستقر على هيئة واحدة : هو تارة فوهة بركان
مستديرة ، وتارة بطن دوامة مكورة كالقمع ، وتارة
مستطيل كشق الخنجر ، تقلصات متتابعة كأنما في حلقتها
خطاف تجذبه يد بلا رحمة ، وانكشفت أسنان تلالا
جوعها فتطايير من حولها الظلام مذعورا ، والأعضاء التي
كانت تزعم أنها فقدت فتننتها في شيوخ الجسد استرد كل
منها حقه واغتصب لنفسه فتنة الجسد كله اشرأب ابهام
القدم وطلب الملا وزادت الضراوة حدة لشدة التناقض

فقد بقى الكف منبسطا مستسلما واهيا ، والذراع رطبا والرضاب شهدا زلالا ، والنفس نفس طفل غرير .

ماذا يفعل ؟ انه سليل أسرة كفت عن الاعطاء ، يريد كأسا ينهلها جرعة واحدة دون أن تلتصق بشفته كدودة العلق ، طلب المتعة لنفسه فدهمته قبل المتعة مسؤولية . . انه لا يقبل الا مسؤولية يتطوع بها بارادته وحريته ويكره أقل مسؤولية تفرض عليه ، انها جزية استعباد وغزو يهتك السستر الذى تتزين من ورائه كرامته ، هى كاملة خالصة له يرضى بها كما هى مابقيت فى خلوتها ، لا حق لأحد غيره أن يتفحصها ، يكبر عليه أن يوضع فى الميزان حتى ولو كانت فى الكفة الأخرى خردلة ، فلتقطع كل يد تزعم أن لها الحق - وبغير طلب منه - أن تعريه وتمتعنه وترنه .

ومع ايمانه هذا لم يستطع فى ذموله أن يصل الى قرار ، وكانت هذه الفتاة الخام الساذجة أسبق منه اليه ، صبرت ليلة ثانية ثم فى الثالثة رفسته بقدمها وقالت له :

— نسام الصعيد خلقن لرجال الصعيد ، اننى أبول على نقودك وأناقتك وكلامك الحلو .

وأضافت تتكلم بلسان القدر :

— ابحث لك عن مومياء ملطخة بالأبيض والأسود
والأحمر ، فبلدكم مملوء بآلاف منها .

وقامت تجمع خلقاتها ولأول مرة انتبه الفتى رغم
ذهوله الى جمال عرنين أشم ، ورقبة متطاولة ، وساقين
مشدودتين تحسدها عليهما أنبل فرس عربية أصيلة .

وفى الصباح كانت هي التي تجر أمها من يدها ،
ومشت متسحبة كأنما تهرب من أعداء غلبهم الكرى
ونومهم خفيف ، ومع ذلك كان اللس الأسود المصبوغ
المخرخش مائلا برأسه الى الأمام قليلا كأنما تستعد
للجري اذا جاوزت الباب ، لم يطل زواجها الثانى هو
أيضا الا أقل من أسبوع ، ولما رأت أمها فى عينيها
وميضاً حسبته بقايا دموع قالت لها :

— لاتحزنى عليه ، يعوضك الله خيرا منه ، هذه
قسمتك .

أجابتها فى سرها :

— ما أطيبك وأغفلك يامه . لو بكيت فلن يكون
بكائى الا حزنا مجددا على زوجى الأول .

لم يجد الفتى بعدها لمتعته اشباعا ولا لجرحه لسانا
يلعقه الا فى أحضان تاجرات الهوى ، ليس لواحدة منهن
حق عليه ، فلا مسؤولية عليه قبلها ، انه يريد أن يشتري
بالنقد لا بمبادلة شيء بشيء ، هذه طريقة بدائية طواها
الزمن والتمدن . كان فى أول الأمر لا يفرق بين واحدة
وأخرى . ثم بدأ يتأنق فيبحث وينقب عن البائعة التي
تجذب المشتريين لبضاعتها جاذب قطعة سكر لأسراب
الذباب ، تروقه كلما زاد عددهم وضاع هو فى الزحام
بينهم ، كأن وجهه أصبح قناعا ، ومع ذلك لا يجد بعد
جنته المنشودة ، فلا يزال يتوهم حتى فى أكثرهن رواجا
وانشغالا اشاحة وجه أولوية خشم أو دفعة يد ، تفسد
عليه طمأنينته . وأصبح غاية ما يتمنى أن يجد من جمد
وجهها فلا يتحرك ولو اصطبغ بلون الشمع ، وانعقد
خشمها فى قالب ثابت ولو تصلبت الشفتان كالخشب ،
ومن شلت يدها ولو أصبحت باردة كالثلج . . . فآين
يجدها ؟

لا أحد يدري ماذا كان يكون مصيره لو لم يدهمه
مرض غريب أقعده فى الفراش زمنا طويلا ، قال
الاطباء انه ميكروب هين لا يخلو منه سليم ، تلتهمه

الكريات الحمراء بسهولة وبغير مساعدة ، أما هو فجسده عاجز عن المقاومة لا لكمة فيه بل لفقدان ارادته ورغبته في المقاومة ، فكل دواء جهد ضائع . ان جسمه هو تجسيد التآرجح على الحبل بين أريج الحياة و نتن الفساد ، فكأنه جثة لا تحركها روح ، بل زنبرك أو مخلوق يتنفس قد أكلت الفرغرينة من تحت الجلد كل لحمه وما أبقت الا لكمة عينيه ، ونصح الأطباء أباه أن يعرضه على طبيب نفساني .

لدغته هذه الكلمة فما كاد الأطباء يفادرون البيت حتى قام من فراشه ودخل الحمام ليميط عنه الأذى ويودع ماضيه ويفتسل ويتطهر ويتشهد ، ثم خرج وقد نطق وجهه الندى بانصياح رضى وطيبة حلوة ، وتناسقت حركات أعضائه وشملها هدوء عجيب أصبح بعده متهما بالبلادة ، ولكنه وجدته عز الأناقة ، فزاد اعتناؤه بأظافره وربطة عنقه وانسجام هندامه ، أصبح يتحرك بنخشوع فيه دلال مخنث ، ويتكلم بنبرات خفيفة فيها غنة ، وبدت في عينيه عنذوبة كأنما كحلها بمسح ، ولكن قامته الطويلة انحنت قليلا الى الأمام فما ضره ذلك بل أضفى عليه جوا من الوقار . وأبان رأسه وذكاءه أكبر من حقيقتهم ، وان اتهمه البعض بسبب هذا الانحناء

أن له نظرات مأكرة فاحصة من تحت لتحت وهو علم
الله من هذه التهمة براء .

وهكذا انتهت هذه الفترة من عمره بدخوله كلية
الحقوق فانتبه له زملاؤه لاناقتة ووقاره وتحلقوا حوله
لايدرون أى شىء يجذبهم اليه ، أهى أظافره أم أصابعه
الرخصة أم هذا العسل الذى يسيل من عينيه وهذه
الفنة فى حديثه ، ولكن أحدا منهم لم تتقدم صلته به الى
درجة الصداقة التى يفصل رباطها قلبين عن وسط
الزحام ، ولكنه لم يشمر بالوحدة بل شعر بالراحة ،
وأضاف على تمسيلة نظراته ابتسامة حلوة ، أصبح
زملاؤه يضربون به المثل فى الطيبة ونبل الأخلاق ،
ويقولون هكذا يكون ابن الناس الأكابر .

لم يكن قد بقى على امتحان الليسانس الا أقل من
سنة ، وطلع على الفتى يوم من أيام الخريف استكان فيه
التيل بعد هيجانه ، وانقلب ذوب عنايه المنحدر من الجبال
البعيدة الى سمرة وطينة داكنة متموجة كجلد السمك ،
فرغ من لقاح الأرض ودخل جحره لينعس فيه طول
الشتاء . ولما فقد فحولته أصبح لاشىء مثله يوحى
بالقشعريرة وظلمة الأعماق والثقل العظيم ، وتزينت

المحقول بعد جفافها وعريها وشقوقها بوشاح من النوار
تجود برحيقه على النحل والحيوان ، ومن خلال النافذة
رأى الفتى وهو راقد فى فراشه سماء لازوردية تتنفس
بنسيم رطب يخنق فيه الخبث ورتلا من سحب بكر
مجلوة ممشطة تمازح أهل الأرض بتقليد كاريكاتورى
ليعض مشاهدهم ، وكان يدا خفية صبت على الكون
فيضا من المرح والسعادة والصفاء ، ومر طائر أسود
عريض الجناحين وأطلق صيحة وهو يفتسل فى الضوء ،
هذه هى السقساقة التى تبشر صيحتها كما تقول أمه
بقدوم مسافر ، ودامت مدى عمر هذه الصيحة لحظة
انهدت فيها عن الانسان قيوده وأغلاله وعبوديته ومخاوفه
وغيومه وأوهامه ودنسه وانقلب طاهرا بريئا مالكا
لحرية مطلقة لا حد لها ، ليس لها من كفاء الا حرية
ملاك أو شيطان ، وهبطت هذه الحرية الى قلب الفتى
فزلزلته قليلا ، ونمى عليها عنقوانها واباءها أن تفصل
على قد القزم أو من هو من الملاك والشيطان بين بين ،
اذن هو فى غنى عنها ، وأدار وجهه للجدار فملاه حتى
استوعبه ملل فظيع أحس معه فى حلقه مرارة العلقم ،
أصبح هو الذى يجرى فى عروقه بدل الدم ، وينضج به

جسده بدل العرق ، وتفتل منه أهدابه ، ويصاغ الوسخ
بين أصابع قدميه .

تأخر فى الخروج ذلك اليوم على خلاف عادته ، ولما
جاوز الباب وقعت نظرتة على الدكان الصغير المواجه
لبيتهم - وكان مغلقا شهورا غير قليلة - فرأه مفتوحا
وشاهد رجلا على سلم يعلق فوقه لافتة «حانوتى عموم
قسم الامامين» فانقبض قلبه ، هل هو محض صدفة أن
جمع الزمن فى صباح واحد بين قدوم الملل وقدم
خادم الموت ؟ هل هذا أو ذاك هو المسافر الذى بشرت
السقساقة بقدومه ؟ أم أن الحوادث مرتبة من قبل بنية
مبيتة ولغرض مرسوم ؟

رأى صبى المعلم - هكذا حكم - يتعجل الرجل
الواقف على السلم حتى جعله يخطىء وسط الحبل وهو
يربطه الى المسمار - وماكاد الرجل ينزل عن السلم
حتى أتى صبى المعلم بالنعش وعلقه على درفة
الباب ، والتفت الى العين التى أحس أنها ترقبه وتلاقت
النظرتان ، حينئذ أمكن لصورة صبى المعلم أن ترسم
فى ذهن الفتى ناطقة جليلة مفصولة عن الكون ، كأنما
سلطت عليه أنوار كاشفة من ثقب مرسوم على هيئته ،
رأى شابا مدكوك الجسم ككيس قطن ، قصير القامة

والذراع ، ضخم اليد ضيق الجبهة والعينين • نظرت
ثاقبة لها لمان ، حبة ترتد يعكس بياضها الضوء في
أشعة حمراء ملتهبة فيها مكر وحنق وعكارة دم فاسد
وجوع الوحش ، لو كان مصمما على قتل غريم في مرمى
بصره لكانت هذه هي نظرتة ، يعلم الفتى أنه رأى
صورته من قبل • • ولكن أين ؟ لا يدري ، وأخيرا هدته
ذاكرته : أنه رأى صورته في كتاب قرأه عن نظرية
دارون : هذه النظرة لها أيضا شبه بنظرة نجم العائلة
قبيلى أن كان يحل موعد شم الكوكابين أو حقن
الأفيون •

وقبل أن يشيح بوجهه رأى الصبى يبتسم له
ويرفع يده الى رأسه بتحية وسلام ، فمضى وهو يعلم
أنه لابد عائد اليه •



وتوثقت عرى الصداقة بين الاثنين وأصبح من
عادة الفتى أن يمضى أمسياته فى صحبة المعلم أمام
الدكان • كان أول الأمر ينزل اليه مرتديا بذلته
وحذاءه ، ثم تركهما ولم يجد بأسا من أن ينزل اليه
مرتديا جلبابه وشبشبته وكان حديث صبى المعلم عن

الشغل ومواسمه وسابق مجده ولذته ومتاعبه وطقوسه
وفنونه وحيله • وقال للفتى ذات يوم :

— مادمتم تسمعننى بشغف وتسالننى عن كل شىء
بلمهفة ، فلماذا لاتأتى معى بنفسك فى أول طلب ؟ سأقول
انك من صبيان المحل ، ولن يكشفك أحد •

قبل عرضه من شدة ملله وذهبه • لم يكن قد رأى
قط من قبل جثة ميت ، ودخلا حارة ضيقة موحلة واقتربا
من بيت يخيم عليه السكون فلما لمحهما سكانه اشتعل
بالصراخ والعويل واللطم ودبديبة أقدام على السقف كما
تفعل المريضة فى الزار اذا سمعت دقتها ، انخلع قلبه
أول الأمر وكاد يضع كفيه على أذنيه ثم وجد نفسه يشق
جموعا من صبية يحتفلون بالمآثم فى فرح ، فهذا التناقض
بين الأصوات ووجوههم هدا من روعه • وصعدا سلما
ضيقا أخذ صبي المعلم يقيسه بنظرته ليعرف هل يسع
النمش أو يضيق به ، ودخلا الشقة فاشتعل الصراخ
والنحيب والدبديبة مرة أخرى ، ومع ذلك لقطت أذنه
وسط الضجة وش وابور الغاز ، فعلم أنهم لم ينسوا على
ماء الغسل ، أحاطت به نسوة متشحات بالسواد دامعات
العين ، ومع ذلك خيل اليه أنهن يستقبلنه استقبالهن

لأحد رجال الاسعاف ، بل أخذت عجوز تربت على ظهره
وتقول :

— يا الله يا الله .. شوف شغلك يا ابني ، ربنا يفتح
عليك .

حينئذ أدرك سر اعتزاز أرباب هذه المهنة بعملهم
ورضائهم عن أنفسهم ، وجره صبي المعلم من يده الى
حجرة ترقد فيها جثة الميت على حشية فوق الأرض وطلب
منه مساعدته في حملها الى الحمام حيث وضعت طاولة
الغسل وصفحة الماء فوق الواپور وأعد الكوز والطاسة
والليفة والصابونة ، ولكن نفرا من أهل البيت أبوا أن
تمس جثة عزيزهم يد غريبة الا حين لا مفر . فحملوها
هم أنفسهم الى الطاولة ودفع صبي الحانوتى بهم خارج
الحمام ورضى أن يبقى منهم شيخ يتمم بآيات من سورة
«يس» فعمل الحانوتى لا يتم الا بحضور شاهد .

وفى حركة يد الفطائرى وهى تقذف الرقاقة فى
الهواء جذب صبي الحانوتى الغطاء الأبيض عن الجثة
وخيل للفتى أنه جناح طائر خرافى يتخبط من فوقه
وحواليه يريد أن يلمسه ، ولما زال الستر وقف لأول
مرة وجها لوجه أمام ميت .

شيء خارج عن تقسيم الكائنات الى ممالك ثلاث ،
يجبرك أن تعيد تقسيمها من جديد الى مملكتين لا ثالث
لهما : جثة ولا جثة ، شيء جامد وهو من لحم طسرى ،
مصنوع على هيئة انسان وليس بانسان ، ولا حيوان
ولا جماد ، ولكن الذى لمس قلبه أنه حين تأمله لم يدر
هل يرى أمامه استسلاما بلغ حد التعذب به أم عذابا
بلغ مداه فذاب فى استسلام ؟

هل الجثة صرخة مشلولة أم صدى تسبيح ؟!
هل هى تهليل معناه لبيك يا حبيبى ؟ أم أنين أخوس
معناه كفى يا أنت يارب ؟!

لا هذا ولا ذاك كله ، إنما هى لاشيء فحسب ،
وهذا الشيء الذى هو لاشيء له صورة بنى آدم ، ولكنه
لا يشيح بوجهه ولا يلوى خشمه ولا يدفع بيده .
وزالت الرهبة من قلب الفتى وأقبل يغسل الجثة
برفق وحنان ضاق بها صبى الحانوتى ذرعا فصرخ
فيه :

— شهل ، شهل قبل أن يخفوا عنا اللحاف .

وأصبح بعد ذلك من عادته أن ينزل للدكان كل يوم

بالجلابية والشبشب ، يصر على أن يصعب صبي الحانوتى
فى كل طلب ، وان يكون أسبق الاثنين جريا اليه . كل
يوم يمضى بلا جثة هو عنده يوم ماسخ ، انه يعمل بلذة
الهواة المفتونين بفنهم ، تريد يداه أن تقلب البضاعة
كلها ، كل الجثث متشابهة عند النظرة الأولى ولكن عند
المحب المتأمل تختلف .

هل اليد مبسوطة أم مقبوضة ، الركبتان مكسورتان
أم متخشبستان مرفوعتان الى الصدر كساقى الطفل الوليد،
صبي الحانوتى يضغط عليهما بكل قوته لتدخل الجثة فى
النعش ، يتمنى أحيانا أن يكون معه مطرقة أو منشار .
عزم ثقيل كالرصااص ، وعملاق خفيف كالريشة ، جثة
لم يبق منها الا جلد بال على عظم نخر ، وأخرى بالون
ينتفخ ، ووجه متشنج فى رعب ووجه مستريح كأنه
راقد فى سبات لذيذ .

وأدرك صبي الحانوتى أن الفتى لا يستطيع فراقه .
ورأى ابتسامته تزداد رقة ووداعة ، ونظراته تعميلا ،
وجسده ارتخاء ، فأخذ الصبى اذا جلس اليه الفتى
التصق به ، ووضع ذراعه فوق كتفه ، وهبط به الى
خصره ، لا يكلمه الا بوضع الفم على الأذن ليهمس له

له بكلام - ولما ظن أن الطبخة قد نضجت وسوس له ذات يوم :

- سلم نفسك الى ان كنت حائرا بها ، لا تتدلل ولا تخف فداخل الدكان ظلام فيه نعرش كبير يسمنا نحن الاثنين .

فكان الفتى ينحى عنه الثعبان الأصلع والبخر ولكن لا يغضب ولا يتأفف لأن ذهنه سارح فى ملكوت القبور .

★★★

لما صبى الحانوتى الى حيلة تعلمها من أشباهه ، فما كاد الفتى يجلس اليه ذلك اليوم حتى بقى بعيدا عنه كأنما انقطع أمله أو ثاب لرشده وانصرفت عنايته عنه الى الاستعبار وذم الزمان والتحسر على الماضى ، وحين أحس أن الفتى قد تخدر قطع حديثه وقال كأنه تذكر فجأة خبرا جليلا .

- أتعلم ! أخبرتنا المعلمة زميلتنا أنها كسبت فى هذا الصباح المبارك أكبر مبلغ دخل يدها حتى اليوم وربما حتى آخر عمرها ، دعيت لغسل عروس من أسرة ثرية كان لم يبق على زفافها الا ليلة واحدة ، الثوب

الأبيض جاهز معلق وجاءتها البلانة ودخلت بها الحمام
فما كادت تغسلها وتقوم من الحوض وتصب فوقها زجاجة
عطر حتى وضعت يدها على قلبها وتأوهت ثم أسلمت
الروح • شيعت جنازتها بالموسيقى ولم يكتف أهلها بنثر
الحناء على تراب القبر بل أصروا أن يغطي ثوب الزفاف
جسدها وأن تهال عليه باقات من الياسمين الزفر •

عروس ، فى مقتبل العمر مفسولة مرتين راقدة
فى ثوب الزفاف فوقها الزهور والليلة أول الشهر •

قال له الفتى بصوت معشرج :

— بيضاء أم سمراء ؟

فأجابه :

— سمراء ، لعلها من الصعيد •

ولما سمع هذه الكلمة انهد وأمسك بتلابيب صبي
الحانوتى وهو يتوسل اليه بصوت مبحوح :

— دلنى على قبرها •

فهمس له :

بشرط أن تقبل ، بشرط أن ترضى •

وتسلل في جوف الظلام شبعان : وحش مفترس
يهضم الزلزل وروح تحطمت وتعفنت وغابت عنها
رحمة الله .

وعلى الصبح وردت لأهل البيت رسالة من
المستشفى تقول أن نجم الأسرة قد هوى بالليل ، وأن
فراشه أصبح شاغرا ينتظر نزىلا جديدا .

فهرس

- كآن ٧
- سارق الكحل ٣٩
- امرأة مسكينة ٥٩
- الفراش الشاغر ٩٣

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠٠/١٣٠٩٤

I.S.B.N 977 - 01 - 6882 - 3



هكذا هو العام السابع من عصر «مكتبة الأسرة»...
 وبعد سنوات طويلا لم يلبث الناس حول مشروع ثقافي
 كبير كما التفتوا حول هذا المشروع الثقافي الضخم حتى
 أصبح مشروعهم الخاص، وطالبوا باستمراره طوال العام.
 واستجيب لهذا المطلب الجماهيري العزيز إيماناً منا
 بأهمية الكتاب وبالكلمة الحادة العتيقة التي يحتويها: هي
 إعادة صياغة وتشكيل وجدان الأمة واستعادة دورها
 الحضاري العظيم عبر السنين.

لقد استطاعت «مكتبة الأسرة»... أن تعيد الروح إلى
 الكتاب مصدراً هاماً وغالياً للثقافة في زمن الانهيارات
 التكنولوجية المعاصرة... وهذا نحن نحتفل ببدء العام
 السابع من عصر هذه المكتبة التي أصدرت (١٧٠٠)
 كتاباً في أكثر من ٢٠٠ مليون نسخة، تختص بها الأسرة
 المصرية في عيوبها ومقوماتها زائداً ونقصاً لا يئس من أجل
 حياة أفضل لهذه الأمة... وما زالت أحلم بكتاب لكل مواطن
 ومكتبة في كل بيت.

سوزان مبارك



١٥٠
عشر

مكتبة الأسرة 2000
مهرجان القراءة للجميع

To: www.al-mostafa.com